ديانة
قدماء المصريين

تأليف

الأستاذ استيندُرْف الألمانى

وتعريب

سليم حسن

(الطبعة الأولى)

سنـــــة ١٩٢٣

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

الى استاذى العظيم

جولنشف

أهدى ترجمة هذا الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المعرب

وبعد فقد اهتمت أمم العالم المتمدين منذ قرنين بكشف النقاب عن مدنية قدماء المصريين، وآثارهم وتبارى علماؤهم وأغنياؤهم وحكوماتهم فى هذا المضمار، وأوقف كثير منهم حياته وأمواله على تعرُّف أسرار هذه المدنية ودرسها واقتناء آثارها. حتى انك لا تكاد تمر ببلد من أمهات بلادهم دون أن ترى فيها داراً لآثار المصريين ومدرسة لتعليم لغتهم. كل ذلك كان ولا يزال جارياً فى أوربا وغيرها، على حين بقى المصريون أنفسهم فى سبات عميق وجهل تام بأجدادهم وآثار مدنيتهم، حتى أنهم كانوا يدوسون بنعالهم ويهدمون بمعاولهم آثار تلك المدنية الخالدة. وهذا ما ساعد الأجانب المتنافسين على حمل تلك الذخائر الى بلادهم، فزينت قصورهم وملأت دور تحفهم

بيد أنهُ فى هذا العصر هبت فى مصر نسمــة أثرية هى بلا ريب اجدى ثمار النهضة القومية التى بهرت العالم. فقد أخذ المصريون أبناء أولئك العظماء يعرفون حقيقة أجدادهم الذين عمروا أديم وادى النيل منذ آلاف السنين، وأسسوا فيه أول مدنية فى التاريخ البشرى سطع نورها على العالم فاقتبست منهُ الأجيال الغابرة ونسجت على منوالها الأمم الحاضرة. فلا غرابة أن رجع أبناء النيل الى الانتساب الى جنسيتهم الخالدة، وأصبحوا يرون الفخر كل الفخر فى أنهم مصريون بعد أن كانوا لا يعرفون إلاّ أنهم « أبناء عرب » أو « مسلمون »

لقد قمت بترجمة معظم هذا الكتاب منذ سنتين، ولكن لم تُتح الفرصة وقتئذ لاتمامه ونشره. فلما نما شعور الوطنية القومية وعم الفخر بالجنسية المصرية رأيت من

واجبى اذاعة ما تعطش القوم اليهِ من معرفة حالة بلادهم وأجدادهم القدماء وكان كشف مقبرة توت عنخ آمون ، ذلك الكنز الذى بهر العالم وهز أركانه ، فخفت الجماهير من أقاصى البلاد لزيارته وترك أبصار وبصائر كل انسان متطلعة الى معرفة أسراره ، اكبر باعث وأعظم مشجع لى على الاسراع باظهار هذا الكتاب

قد يتوهم قارئ عنوان الكتاب أنهُ لن يجد فيهِ الاَّ مجرد ديانة واعتقاد غابر . ولكن الباحث فى تاريخ قدماء المصريين يدرك ما كان للديانة والحياة الآخرة من عظيم الأثر فى مدنية القوم وعلومهم وفنونهم وآثارهم وسائر مرافق حياتهم، لما بين هذه وتلك من وثيق الارتباط . ولولا معتقدات المصريين الدينية لما رأينا تلك المعابد والمقابر والاهرام والتماثيل والجثث المحنطة وطرف الفن وغير ذلك

فالمطلع على هذا الكتاب لن يقف على معرفة ديانة أجداده القدماء فحسب، بل انهُ سيعرف كل ما تتوق اليهِ نفسه من أسرار مدنيتهم وبراعتهم الفنيـة . هذا الى أنهُ سيقف على نشوء وتدرج الديانة المصرية وتأثيرها فى فلسفة اليونان والرومان ومدنيتهم، ويدرك فضلها على ديانات العالم قديمًا وحديثًا

لهذا الكتاب قيمة لا يعدله فيها غيره ؛ فانهُ مجموع محاضرات ألقاها فى اكثر من ثمانى عشرة جامعة أمريكية ذلك الفيلسوف الألمانى الفـذ والعالم الأثرى القدير « اشتيندرف » أستاذ اللغة المصرية فى جامعة لبزج وصاحب المؤلفات القيمة ومدير اكبر مجلة مصرية أثرية فى العالم ، فحازت محاضراته أعظم اقبال

حظيت بمقابلة المؤلف أثناء زيارتى لألمانيا فى العام المنصرم ، ورجوته أن يسمح لى بنشر ترجمة كتابه ، فتفضل بذلك ، وسره أن يطلع على كتابه أبناء أولئك العظماء الذين صرف حياته فى معرفة ودرس تاريخهم وآثارهم ؛ فلا يسعنى ولا يسع كل مصرى الاَّ اسداءه جزيل الشكر

راعيت فى ترجمتى منتهى الدقة ؛ فلم يطوح بى غرام بلاغـة العبارات وروعة الأساليب الى خروج عن الأصل زيادة أو نقصًا . وقد حرصت كل الحرص عند ترجمة الأناشيد والأغانى القديمة على النص الحرفى دون تصرف أو تبديل ؛ فلاغرو

ان جاء فى هذه بعض الغموض . ولكن القارئ اذا رجع بنفسه ، فعاش مع القوم منذ آلاف السنين ، وخلط حياته وأفكاره بحياتهم وأفكارهم ، سهل عليه إدراك تلك الأناشيد ونحوها .

وقد اتبعنا الكتاب بصور معظم الآلهة وغيرها مما يهم القارئ رؤيته. ولم تكن هذه فى الأصل ، ولكن المؤلف سمح لنا بعد أن تم طبع الكتاب باضافتها زيادة للايضاح

وانى أشكر لحضرة الأستاذ عمر الاسكندرى افندى ما قام بهِ من مراجعة ترجمة معظم فصول الكتاب . أما شكرى لصديقى الأستاذ منصور سليمان افندى فيعجز عنهُ قلمى؛ فقد راجع معى الترجمة على الأصل ثانية ، ونقح بعض العبارات العربية ، وقام بقراءة المسودات أثناء الطبع . وإن لمساعدة هذين الفاضلين اكبر أثر فى اظهار هذا الكتاب فى شكله الحالى

ولا يفوتني أن أشكر للمسيو مونييه أمين مكتبة دار الآثار المصرية مساعدته فى جمع صور الكتاب ، كما أشكر لحضرة نجيب افندى مترى صاحب مطبعة المعارف ومكتبتها ما أظهره من العناية والصبر

هذا وانى لأرجو أن يهتم المصريون بأجدادهم اهتمام العالم الأجنبى بهم ، وان يحذوا حذوهم ويقتفوا آثارهم ، حتى يسترجعوا مجدهم ويحلوا المحل اللائق بهم ، فيصبحوا جديرين بالانتساب اليهم ، والله الموفق الى طريق الفلاح ؟

٢١ ذى القعدة سنة ١٣٤١
٦ يوليه سنة ١٩٢٣

سليم حسن

ديانة قدماء المصريين

المحاضرة الاولى

الديانة المصرية فى نشأتها الاولى

مركز الديانة المصرية فى تاريخ العالم

قد لا يكون فى تاريخ أمم العالم أجمع أمة تأصلت الديانة فيها وامتزجت بحياة أهلها امتزاجاً عظيماً كالأمة المصرية ؛ ولا نكون مغالين اذا لم نستثن بنى اسرائيل من بين هاتيك الأمم . لذلك اذا تناولنا البحث فى ديانة قدماء المصريين فانما نصف أهم جزء من تاريخ مدنيتهم القديمة ؛ وأن لدى الباحث فى ديانة المصريين وأساطيرهم وتفاصيل عباداتهم وحفلاتهم مورداً فياضاً ومنهلاً سيالاً لا يزال ينمو ويزداد على مر الأيام بالكشوف التى تترى

مصادر الديانة المصرية

فمن زمن غير بعيد لم يكن بين أيدى الباحثين والمنقبين فى هذا الموضوع غير المصادر الأجنبية أى ما نقله الينا كتاب اليونان الأقدمون أمثال « هيردوت » و « ديودور » و « بلوتارخ » و « حورابلون » مضافاً الى ما ورد عن ذلك فى التوراة . أما الآن وقد حُلت رموز الكتابة الهروغليفية وارتاد الباحثون وادى النيل ونقبوا عن آثاره تنقيباً علمياً طوال القرن المنصرم فقد سهل علينا الوصول الى المصادر الأصلية وصارت أمامنا جلية واضحة . أما مقدار هذه المصادر فيخطئه العد اذ لا يكاد يوجد متن واحد فى اللغة

المصرية القديمة الا والديانة فيه دخل . فما من جدار معبد أو مقبرة أو نصب أو قطعة من الحجر الجيرى أو الخزف المكتوب الا وللنقوش التى عليها فائدة تختلف فى الأهمية فى تفهم معتقدات قدماء المصريين وشعورهم الدينى . هذا عدا ما هو مدون من ذلك فى معظم أوراق البردى . وقد لا نكون مبالغين اذا قررنا أن تسعة أعشار ما حفظته لنا الأيام من النقوش المصرية القديمة موقوف على أغراض دينية محضه وجل العشر الباقى يشتمل على معلومات لها دخل بالدين أيضاً

ولكن رغم وفرة المتون الدينية والشروح الخاصة بالآلهة والتعاويذ والمعابد والمقابر التى أبقتها يد البلى من عهد قدماء المصريين لا تزال معلوماتنا عن دياناتهم ضئيلة ، وليس من المستطاع الى الآن بحث هذا الموضوع بحثاً علمياً دون أن يضطر الباحث الى ترك فجوات فى بحثه من جهة ، ولا بد له من جهة أخرى أن يبنى بعض ابحاثه على فروض نظرية قد يخطئ أو يصيب فيها . وأسباب هذه الحقيقة الغريبة التى تبدو مدهشة لأول نظره كثيرة جداً

قلة المعلومات عن الديانة وسببها

فانه لا يغرب عن الذهن أن كل الموارد التى بين أيدينا يرجع الفضل فى وصولها الينا الى محض المصادفة اذ أن جزءاً وفيراً من مؤلفات القوم الدينية حفظته لنا الأيام لا لسبب الا أنه وجد منقولاً على قبر من القبور أو على ورقة بردى عثر عليها مدفونة مع أحد الموتى فى مقره الأزلى؛ غير أن هناك كتابات دينية أخرى لا تقل عن تلك فى الأهمية قد فقدت لأن العادة لم تقض بنقلها فى نسخ عدة . ومن المحتمل أيضاً أن رمال الصحراء المجدبة لا تزال تضم فى جوفها وثائق عدة تنتظر الساعة التى يماط فيها اللثام عنها وتظهر للعالم . يضاف الى ذلك ان جل ما وصل الينا من الوثائق والنقوش

الاسباب الخارجى

وورق البَردى لم يكتب الاّ تبعاً لتقاليد مأتمية خاصة ، ويتناول موضوعه الحياة الآخرة ولهذا كانت معلوماتنا عن أحوال الآخرة وفيرة . أما ما كان متداولاً بين الناس من الأساطير العدة الخاصة بالآلهة والتى لا بد أن يكون الكثير منها قد كسب قيمة أدبية جملته يدون فى بطون الكتب فلم يصل الينا منه الاّ النزر اليسير؛ بل ان هذا القليل لم يصل الينا الاّ على شكل نتف صغيرة متقطعة . هذا الى أن الباحثين لم يعثروا على مجموعة شاملة للفلسفة* المصرية القديمة وذلك نقص لا ينتظر أن يسعدنا الحظ بسده اذ أن نصيب هذا الباب من التدوين لم يزد على نصيب التاريخ المصرى أو السياسة المصرية

ولا بدّ أن نضيف الى عوامل النقص الخارجة عن دائرة جهودنا عوامل أخرى داخلية . من ذلك ان ما وصل الينا من الكتابات الدينية يعترض تفهم بعضها مشكلات لم يمكن حلها وستبقى البحوث العلمية عاجزة عن ادراك كنهها زمناً طويلاً . فمن ذلك ان كثيراً من المؤلفات الدينية (ويكفى أن نخص منها بالذكر هنا ما يسمى بكتاب الموتى) لم يصل الى أيدينا منه الاّ نسخ نقلت فى أزمنة متأخرة . أجل أننا اذا وازنّا بين عدة نسخ مختلفة من هذا الكتاب أمكننا فى بعض الأحيان ان نرجع بعض عباراته الى أصلها الحقيق غير أن الأصول التى بأيدينا كثيراً ما تكون محرفة لدرجة يستحيل معها بما لدينا الآن من الوسائل القيام بأى تصحيح كان؛ يضاف الى ذلك ما يعترض الباحثين من العقد اللغوية والاشكالات العلمية

الاسباب الداخلية

فكانت نتيجة ذلك اننا وان كنا نعرف طائفة عظيمة من آلهة قدماء

* ظهر حديثاً كتاب فى الفلسفة المصرية يسمى نصائح فيلسوف مصرى ترجمه الى الانجليزية الأثرى الكبير « جردنر »

المصريين اسماً وصورة ونعلم فى أى معبد وعلى يد أى كهنة كانوا يعبدون فاننا لم تقف تماماً على حقيقة كنههم أو مبلغ منزلتهم عند الكهنة ودهماء القوم بل لم نعثر على معظم الأساطير التى كانت تدور حول أشخاصهم . ولكن على الرغم من كل تلك الفجوات فى معلوماتنا فان موضوع ديانة قدماء المصريين فيه من المشوقات الجمة ما يأخذ بألبابنا ولا غرو فهى ديانة قوم بلغوا شأواً بعيداً من الحضارة . ديانة نمت وترعرت (كسائر مظاهر الحضارة المصرية) بمعزل عن أى تأثير أجنبي . وقد بقيت ما يقرب من أربعة آلاف من السنين وهى صاحبة المكانة الأولى من نفوس أمة من أقدم أمم العالم وأعظمها شأناً

موضوع الديانة مشوق

وقبل أن أتناول البحث فى موضوعي الأصلى — وهو شرح ديانة قدماء المصريين — رأيت من الضرورى تمهيداً لايضاح أطوار تدرج الديانة ونموها أن أكتب كلمة موجزة عن تاريخ قدماء المصريين أو على الاقل أهم عصور تاريخهم

ولنبدأ بتقسيم تاريخ ملوك مصر ناهجين فى ذلك نهج مانيتون — وهو كاهن مصرى وضع مؤلفاً عن تاريخ مصر باللغة الاغريقية مسترشداً فى هذا الامر بما وصل الى عهده بطريق التواتر جيلاً بعد جيل

قسم مانيتون ملوك مصر من عهد مينا أول ملوك الفراعنة الى عهد الاسكندر الأكبر الى احدى وثلاثين أسرة. وهذا التقسيم ينطبق بوجه عام على الأسر الملكية المختلفة التى حكمت بالتتابع أو مجتمعة فى وادى النيل . ولتسهيل تقرير الحقائق على وجه عام جرت العادة أن تقسم هذه الأسر الى عصور أو دول . وأهم هذه الدول ثلاث — الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة . على أنه من أصعب الأمور وضع تواريخ مؤكدة لتعيين أزمنة

هذه الأسر أو مدة حكم كل من ملوكها . ولهذا نكتفى هنا بالتواريخ التقريبية فيما يتعلق بالأزمنة الأولى . ولا يعزب عن أذهاننا أن الأرقام التى أوردناها لم تعتمد بصفة قاطعة ، بل قد تكون قابلة للتغير نقصاً أو زيادة بنحو مائة سنة أو أكثر ، ولا يمكن اعتبار التواريخ صحيحة محققة الآ عند ابتداء حكم الاسرة الثانية عشرة وذلك بفضل الشواهد الفلكية التى ترجع الى ذلك العهد

تقسيم تاريخ مصر حسب مانيتون

« مصر منحة من النيل » عبارة فاه بها هكاته الجغرافى اليونانى وكان أول من نقلها عنه هيرودوت ثم رددها بعده آخرون ؛ وهى تنم عن كنه أرض مصر باختصار ودقة تعبير لا يمكن مجاراتهما

هكاته يعرف مصر

فى الهضبة الصحراوية التى تشمل كل الجزء الشمالى الشرقى من القارة الافريقية حفر النيل مجراه من آلاف من السنين مخترقاً أحجارها الرملية وصخورها الجيرية فى حين ان ما كان يرسب من مياهه من الغرين عاماً بعد عام جعل الجزء الأسفل من هذا الوادى (وهو مصر الاصلية) من أخصب بقاع المعمورة

وكان يقطن وادى النيل فى الاعصر الاولى المتوغلة فى القدم زنوج افريقيون ؛ ولم يقتصروا على شمالى الخرطوم الحالية بل كان سكان مصر من هذا الجنس أيضاً

أصل سكان وادى النيل

وكانت لغة القوم افريقية الأصل ودياناتهم لا تكاد تميز عن الوثنية الساذجة التى يدين بها جم غفير من القبائل الافريقية الحالية . وكان الفلاح المصرى اذ ذاك يفلح أرضه بفأسه ويشقها بمحراثه بعد انخفاض الفيضان وكانت الأراضى الرطبة بريف مصر مرعى لعدد وفير من أسراب الماشية أما فروع النيل الراكدة المياه والمستنقعات الكثيرة النائية المترامية الأطراف

لغة المصريين ودياناتهم

وصناعاتهم

بالوجهين البحرى والقبلى فكانت تكتنفها الاعشاب الكثيفة من البردى ويؤمها عجول البحر والتماسيح وطير الماء . وكان المصرى يصل الى تلك البقاع الموحشة فى زورق من البردى ليصطاد بخطافه ويرشق بنبله حيوان هذه المستنقعات أو كان يصعد الى قمم التلول الصحراوية التى تكتنف حافتى الوادى فيقنص فيها السباع أو الضباع أو بنات آوى

حالة البلاد العمرانية

وقد كانت الحاجة الى طلب القوت سبباً فى تعلم القوم تدريجاً والنهوض بهم الى مراقى الحضارة ونور العلم ؛ فكانت وفرة الماء الذى يفيض على تربة مصر كل عام داعية لتوزيعه بالتساوى على الحقول . ولتحقيق هذا الغرض كان لا بد من اقامة السدود وحفر الترع وانشاء الخلجان وبناء الجسور . وكذلك كان لا بد من تجفيف المستنقعات لتحويلها الى أراض زراعية . كل هذه المجهودات يتعذر على الفرد القيام بها وحده؛ لذلك كان لزاماً على السكان أن ينضموا ويؤلفوا من أنفسهم وحدات كبيرة تلقى كل منها مقاليد أمرها فى يد رئيس يرأسها . ومن ذلك تكونت أمارات صغيرة يحكمها رؤساء صغار

والسياسية

تلك حتماً كانت الدرجة التى وصل اليها المصريون الأقدمون من التقدم السياسى والعمرانى حينما نزل على البلاد سيل من البدو منحدر من بلاد العرب مهبط أجداد الجنس السامى عن طريق برزخ السويس ؛ فاجتاحوا البلاد واستولوا عليها دفعة واحدة كما وقع فى الفتح الاسلامى . ولم يكن للجنس الافريقى قِبَلٌ بمقاومة الاسيويين بل أنهم اتخذوا لغة الغزاة لغة لهم وان كانوا قد أكسبوها مسحة من لغتهم الاصلية . بيد أن غزاة العرب

الفتح السامى

خضعوا عن طيب خاطر الى التمدين المصرى الذى كان بلا مراء يفوق مدنيتهم ولم يمض طويل زمن حتى اندمج القاهر فى المقهور وصار الفريقان أمة واحدة

ولم تبق لنا الايام شيئاً يدلنا على هذا الفتح السامى الذى حدث قبل انبثاق فجر التاريخ وليس لدينا ما يؤيد صحته سوى القرابة اللغوية وهى التى اعتمدنا عليها فى تخيل تلك الحوادث التى ذكرناها باختصار

آثاره فى اللغة

تكوين مملكتين فى مصر

وفى فجر التاريخ تكوّن من الامارات المختلفة التى نشأت فى البلاد المصرية مملكتان عظيمتان وهما المملكة المصرية السفلى وتشمل الاراضى الشمالية وهى ما يقابل الدلتا الآن والمملكة المصرية العليا « الجنوب » وتمتد من جوار مدينة القاهرة الحالية الى جنادل أسوان . وكانت حاضرة الدلتا (الأرض الشمالية) بلدة « بهدت* » وكان موقعها مدينة دمنهور الحالية أما ملك الجنوب فكان يقطن فى « امبص » على ضفة النيل الغربية شمالى الأقصر وعلى مقربة منها . وقد ظلت هاتان المملكتان جنباً لجنب أجيالاً مستقلة احداهما عن الاخرى الى أن اندمجتا احداهما فى الأخرى وتكونت منهما دولة واحدة . وقد حدث ذلك الاندماج عند ما غزت مصر السفلى مصر العليا . ومن المحتمل ان عاصمة الدولة الجديدة التى تألفت منهما كانت بلدة « هليوبوليس » (عين شمس) الواقعة على حدود تينك الولايتين . وتعرف هذه البلدة عند قدماء المصريين باسم « آون » وقد أصبحت فى الوقت نفسه مهبط العلم والعرفان فى طول البلاد وعرضها

ضم القطرين

العاصمة آون

ويتعذر علينا أن نقرر ولو على وجه التقريب طول المدة التى استغرقها اتحاد القطرين حتى تكونت منهما دولة واحدة تحت حكم ملوك الدلتا . وغاية ما نعلمه ان أواصر هذا الاتحاد أخذت تحل عقدتها تدريجاً فأفضى ذلك الى انقسام الدولة ثانية الى ولايتين الوجه البحرى والوجه القبلى . عند ذلك

---

* المعروف الآن عند علماء اللغة المصرية ان بلدة بهدت هى ادفو الحالية .

انفصال القطرين ثانية

تحولت عاصمة الشمال (الوجه البحرى) الى « بوتو » الواقعة فى منافع الدلتا على مقربة من ساحل البحر الأبيض المتوسط . واتخذ ملوك الوجه القبلى حاضرتهم فى الجنوب الاقصى فى مدينة « نخب » « الكاب » وهى التى أطلق عليها اليونان فيما بعد اسم Eiliethyiopolis والظاهر أنه بعد هذا الانفصال لم تكن العلاقة بين ملوك «نخب» «الكاب» وبين ملوك بوتو على أحسن ما يكون من الوئام والصداقة فقد أخذت نار الحرب يندلع لهيبها بين أهل القطرين من حين الى آخر فكان أهل الصعيد يلقون الرعب والفزع فى قلوب أهل الدلتا وخاصة فى مدينة « بوتو » ومن هذه المشاحات خرج أهل الصعيد ولواء النصر معقود على جباههم فأخضعوا الدلتا بحد السيف وبذلك انضم القطران ثانية وكونا دولة واحدة جديدة

ضم القطرين ثانية

وقد لا نكون بعيدين عن الحقيقة اذا قررنا أن « مينا » الذى قال مؤرخو اليونان أنه أول ملك معروف من بنى البشر حكم مصر متحدة هو الملك الذى قام بتوحيد القطرين ثانية سنة ٣٣١٥ قبل الميلاد ؛ غير أن ما وصل الينا من المعلومات عن مينا وأخلافه من ملوك الأسرتين الأولى والثانية (٣٣١٥ — ٢٨٩٥ ق . م .) قليل جداً . وكل ما نعلمه أنه أسس على الحد الفاصل بين الأرضين (الدلتا والصعيد) « الجدران البيضاء » (منف) وهى قلعة شيدها لتلقى الرعب والفزع فى قلوب أهل الدلتا المقهورين . وقد اتخذ ملوك هاتين الأسرتين مقرهم من مدينة طينة الواقعة على مسافة قريبة من العرابة المدفونة حيث كشفت قبورهم الساذجة فى ختام القرن المنصرم

مينا أول ملوك مصر

وباستيلاء ملوك الأسرة الثالثة (٢٨٩٥ — ٢٨٤٠ ق . م) على صولجان الملك تحولت العاصمة الى منف أو منفيس وتعتبر هذه الأسرة بداية الدولة

القديمة التي استمرت الى نهاية الأسرة السادسة التي قدرنا مدة حكمها من (٢٨٤٠ — ٢٣٦٠ ق . م) . وهذا العصر من أعظم عصور مصر بلغت فيه البلاد الذروة في الحضارة والفنون؛ وفيه ابتدأ بناء الاهرام العظيمة وبخاصة «اهرام الجيزة» التي تنسب الى الثلاثة الملوك الشهيرة الذين تربعوا على عرش مصر فى خلال الأسرة الرابعة وهم : خوفو وخفرع ومنقرع؛ ولهذا السبب اطلق على عهد الدولة القديمة «عصر بناة الأهرام»

الدولة القديمة

ولم تكد أيام الأسرة السادسة تنتهى حتى انفرط عقد نظام الدولة المصرية، ففشت الفوضى فى داخل البلاد، وساد سوء النظام فى أرجائها، وبقيت الحال كذلك حتى اعتلى أريكة الملك ملوك الأسرة الحادية عشرة؛ وهم من سلالة أسرة نبتت فى طيبة فى الوجه القبلى وقد تمكنوا من توحيد كلمة البلاد وتوطيد الحكومة والنظام (٢١٦٠ — ٢٠٠٠ ق . م .)

ومنذ حكم ملوك الأسرة الثانية عشرة الذين كانوا يسمون إما امينمحعت وإما اسرتسن، ابتدأ عصر فلاح وتقدم فى تاريخ البلاد يعرف بعهد الدولة الوسطى، وتعتبر مدة حكم هذه الدولة من (٢٠٠٠ — ١٧٩٠ ق . م .) . وقد فتح ملوك هذا العصر الزاهر أعالى وادى النيل المعروفة ببلاد النوبة وقاموا بأعمال عظيمة كبناء اللبرنته «قصر التيه» الشهير بالفيوم؛ وكذلك نمت فى عهدهم الآداب وازدهت لدرجة جعلت أخلاف الدولة الوسطى من الأجيال المصرية يعدون عصرها العصر الذهبي فى الكتابة والتأليف

الدولة الوسطى

ثم أناخت على البلاد فتن داخلية جديدة كانت سبباً فى انحلال الدولة الوسطى، والقضاء عليها قضاء مشينا . وقد حدث وقتئذ حادث على جانب عظيم من الأهمية من الوجهتين الدينية والسياسية . ذلك هو اجتياح البلاد

عهد «الهكسوس» بقبائل من البدو الساميين، انقضوا عليها من طريق الصحراء الشامية بقيادة الهكسوس أو ملوك الرعاة ؛ وقد انتهزوا فرصة تزعزع الحالة السياسية فى مصر واستولوا عليها بلا ضرب ولا طعن . وقد بقوا أصحاب السيادة فيها قرناً من الزمان من (١٦٨٠ — ١٥٨٠ ق . م .)

وقد كان النهوض بالبلاد ثانية وطرد هؤلاء الغزاة الأسيويين بعد شجار عنيف احتدم وطيسه سنين عدة على يد أمراء طيبة . ومن هذه الآونة انفتح عصر مجد جديد تمثلت فيه عظمة مصر وقوة بطشها ، وهو ما يسمى عند المؤرخين بالدولة الحديثة

طرد الهكسوس

ويبتدئ هـذا العصر بالأسرة الثانية عشرة، وينتهى بالأسرة العشرين، ويمتد من (١٨٨٠ الى ١١٠٠ ق . م .). وفيه نرى ملوك الأسرة الثامنة عشرة العظام، أمثال تحتمس وامنحوتب ، يقودون الجيوش الى آسيا ويسوقونها فى فتوحهم حتى يوردوها شواطئ الفرات ؛ وأصبحت فى عهدهم كل سوريا ولاية مصرية

الدولة الحديثة

ومن ثم أخذت العلائق المتينـة تنمو بين مصر وأمم الشرق المتمدينة وبخاصة أشور وبابل، كما توطدت بينها وبين جزر البحر الأبيض المتوسط ؛ وقد كان لهذا الاختلاط أثر بيِّنٌ فى حياة الأمة الاجتماعية والسياسية والفنية

العلاقة بين مصر والامم الاخرى

وفى عهد ملوك الأسرة التاسعة عشرة الذين تسموا «بسيتى» و«رمسيس» فقدت مصر معظم مالهـا من الجاه كدولة قوية ، وبالرغم من الانتصارات الحربية العدة التى أحرزها رعامسة الأسرة العشرين، لم يكن فى مقدورهم ايقاف تيار الاضمحلال. وقد كان من جراء ذلك أن قام رئيس كهنة أمون فى مدينة طيبة (الأقصر) وتربع على أريكة الملك . على أن مدة حكم الـكهنة لم تدم

عصر الرعامسة

طويلاً ؛ اذ انتزع منهم رؤساء الجيش من جنود اللوبيين المرتزقة صولجان الملك، ومكثوا أصحاب القوة والسلطان فى البلاد نحو قرن من الزمان. ثم أخذت البلاد مرة أخرى فى الانحطاط تدريجاً ، وانقسمت الى أمارات صغيرة . ثم قضى على هذه الولايات ملوك النوبة الذين انحدروا من الجنوب وغزوا وادى النيل، فدان لسلطانهم الى أن أجلاهم عنه ملوك أشور العظام، فصارت مصر مدة من الزمان ولاية أشورية . ويعتبر عصر تسلط الأجانب من اللوبيين والنوبيين والأشوريين ، أى من الأسرة الثانية والعشرين الى نهاية الخامسة والعشرين ، من أظلم عصور التاريخ المصرى القديم وأنكدها

الامم التى حكمت مصر

وفى النهاية سنحت الفرص لبسمتيك أحد سلائل الفراعنة ، فخلع نير الحكم الأشورى، وقضى على حكومات الأمراء الصغار، وأعاد الى مصر وحدتها واتحادها . وفى أيامه وأيام أخلافه من فراعنة الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٣ — ٥٢٥ ق . م .) أشرق على البلاد عهد رخاء وتقدم ؛ فنمت التجارة وانتشرت بفضل العلائق التى وطدت دعائمها بين مصر وبلاد اليونان، ونهضت الفنون أيضاً نهضة جديدة . ويرجع عهد بذر بذور هذه النهضة الى عصر ملوك النوبة؛ اذ بعث فيهم ورعهم الدينى حب تقليد النماذج المصرية فى عهدها الأدبى، وهو عهد الدولة القديمة؛ ولم تقف هذه الروح عند الفنون بل ظهرت أيضاً فى عبادة الآلهة والملوك الأول وفى الآداب والكتابة وألقاب رجال الدولة . فنجد القوم أغرموا فى كل ذلك بتقليد ما كان متبعاً فى عهد الدولتين الوسطى والقديمة. ولا غرابة اذًا اذا أطلق على عهد الأسرة السادسة والعشرين عصر « النهضة المصرية »

عصر النهضة المصرية

ولكن واحسرتاه، فان هذه النهضة لم تدم طويلاً، اذ فى عام ٥٢٥ ق.م

الفتح الفارسى

فتح «قمبيز» ملك الفرس البلاد المصرية وقضى على استقلالها القضاء المبرم، فبقيت ولاية فارسية الى عام ٣٣٢ ق . م . وهو العام الذى سقطت فيه مصر فى يد الاسكندر الأكبر . ولما تمزقت دولة هذا الفاتح العظيم بعد أن عاجله المنون وهو فى شرخ الشباب، كانت مصر من نصيب بطليموس بن لاغوس أحد قواد الاسكندر، وأخلافه من بعده. وتعرف هذه الأسرة فى التاريخ بالبطالسة « أو لجيده » . وبقى وادى النيل خلال الثلاثة القرون التى حكموها فيه مركزا لدولة زاهرة زاهية الى أن انشبت الفتن الداخلية أظفارها به واحتدمت نارا المشاحنات بين مصر والرومان، فادى ذلك بعد واقعة اكتيوم عام (٣١ ق . م .) الى سقوط البلاد فى يد « أغسطس » امبراطور الرومان . وقد ظهر كل من ملوك البطالسة وملوك رومية بمظهر أخلاف للفراعنة، وحافظوا فى الظاهر على معالم الحكومة المصرية القديمة، فاحترموا معتقدات رعاياهم المصريين الدينية، بل أنهم اشتركوا فى تشييد المعابد الضخمة. بيد أن مواهب القوم العقلية كانت قد قضى عليها وانمحت الحياة القومية من البلاد ؛ فلم يكن هناك عائق يذكر يحول بين دخول الدين المسيحى فى أرض الفراعنة وانتشاره فى أرجائها

عصر البطالسة

عهد الرومان

من أراد أن يقف على كنه أفكار قدماء المصريين وشعورهم الدينى فى العصور التاريخية وجب عليه أولاً أن يرجع البصر كرة ليتلمس شيئاً عن عبادة أولئك القوم فى عصورهم المظلمة قبل بزوغ العصر التاريخى وقت أن كانت الأرضان (الوجه القبلى والوجه البحرى) لا تزالان جارتين مستقلتين الواحدة عن الأخرى، ولم تكن بعدُ كل مصر متحدة مكونة لدولة واحدة . لما غزا الساميون البلاد أخذوا عن الأفريقيين سكان مصر مدنيتهم الراقية

وتدينوا فى الوقت عينه بديانتهم الساذجة . ولربما خطر ببالك أن تتساءل هل احتفظ أولئك القوم بمعبوداتهم التى كانوا يتعبدون بها فى الصحراء مسقط رأسهم ، وهل راق بعض هذه المعبودات فى أعين المصريين المقهورين ؟ أو ، بالاختصار ، هل كان للساميين أثر فى معتقدات المصريين الأولى ؟ . ان هذا السؤال يتعذر ان نجيب عليه اجابة علمية شافية . حقاً انه من السهل جداً أن يتلاعب الباحث فى أصول الكلمات فيتخذ من هذه الاعتبارات اللغوية حجة للقول بأن بعض الآلهة المصرية سامية المنشأ ، أو أن يسقط من مجموعة المعبودات المصرية ما لا ينطبق على الغرض الذى يصوره له الخيال . غير ان أمثال هذه الفروض لا تحتمل صحتها لما فيها من الجرءة ؛ ولذلك نرى من الصواب أن نحجم ولو مؤقتاً عن الخوض فى غمار التخيلات والفروض التى تجيز وجود أصل أسيوى أو سامى فى أى عنصر من عناصر الديانة المصرية القديمة فى عهدها الأول قبل انبثاق فجر التاريخ

تأثير الفتح السامى فى مصر

وغاية ما يمكن أن يعتد به من الحقائق الثابتة فى هذا الصدد هو ان مصر فى عهدها الأول لم تكن فيها وحدة دينية ، فكان فى كل مدينة وفى كل بلدة وقرية معبودها الخاص الذى يحمى حوزتها واليه كانت ترفع السكان أكف الضراعة اذا دهمهم خطر ، فيلتمسون معونته ، ويبتغون رضاه بالضحايا واقامة الصلوات ، لاعتقادهم ان سعادة المجتمع وشقوته فى يديه ، فكان هو رب المقاطعة « أو اله المدينة » كما ذكر على النقوش . والحقيقة أن مثله كان كمثل الحاكم الدنيوى متسلطاً على رقاب كل من القيت مقاليد أمرهم بيده : يحمى حياتهم ويحفظ سلعهم ويدفع عن ماشيتهم كل طارئ أجنبي مفاجئ . وكان رضاه رحمة على الناس وغضبه نقمة ومتلفة لهم

عبادة اله فى كل مقاطعة

ولقد بلغ من شدة ارتباط هذه الآلهة بمقاطعاتها ان بعضها فقد اسمه الخاص وصار يسمى فقط باسم الجهة التي يسيطر عليها ويظهر بطشه فيها.

الاله يسمى باسم المقاطعة

فمن ذلك ان اله ادفو المحلى كان يذكر باسم « اله ادفو » والهة الكاب كانت تدعى « سيدة الكاب ». على أنه مما لا ريب فيه ان العادة جرت بأن يسمى كل اله محلى باسم خاص؛ فكان اله منفيس مثلاً يدعى « فتَّاح »، واله مقاطعة الشلال القريبة من الفيلة اسمه « خُنُم »، واله « امبُص» القريبة من نَقَادة « بالوجه القبلى» اسمه « سُوبَخ» أو « سِت»، واله «قِفْطْ » الواقعة على طريق القوافل من النيل الى البحر الأحمر اسمه « مِنْ »، ومعبود الفيوم فى اقليم بحيرة موريس اسمه « سُبْك » . ومن بين الالهات نذكر الالهة « حَاتْحُور » سيدة دندره، والمعبودة « نَيْت » الهة سايس (صالحجر) فى الدلتا، و« سِخْمتْ » الهة إحدى ضواحى منف. وهذا قليل من كثير، اذ من المستحيل ان نعدد كل المعبودات المحلية؛ لأن هذا يحتم علينا ان نسرد أسماء كل الأماكن المصرية القديمة، وذلك يبعدنا كثيراً عن غرضنا الأصلى

أسماء بعض الالهة

أسماء بعض الالهات

أما مدلول أسماء هذه الآلهة فانه يصعب علينا جداً أن نقرر عنه شيئاً باليقين، اللهم الاّ أسماء قليلة مثل لفظة « سِخْمتْ » (الهة منف) التى نعلم أن معناها « القوية » . والحقيقة أن أصول هذه الكلمات ليست معلومة لدينا فى أغلب الأحوال؛ فاذا قيل مثلاً ان اسم الاله « فتاح » فيه علاقة لفظية بالكلمة العبرية « بتاح » التى معناها يفتح أو ينحت وانه يصح لهذا الاعتبار أن يسمى «بالناحت» أو «الصانع»، أو اذا فسر اسم المعبود حوريس على حسب اللغة المصرية القديمة بمعنى «الواحد العالى أو الواحد السماوى»، فان كل ذلك لا يرتكز على أساس متين ولا يخرج عن دائرة الظن والتخمين؛

مدلول أسماء الالهة

يضاف الى ذلك انه كان لعلماء اللاهوت عند المصريين ولع بالانكباب على درس أصول هذه الكلمات ، فتلاعبوا بألفاظها حتى تحايلوا على تفسير أسماء الآلهة ووضع صفات لها ؛ فمثلاً لفظة « امون » التى كانت تطلق على معبود الدولة الحديثة فسروها « بالواحد الخفى » أو « الواحد السرى » باعتبار ان تلك اللفظة من فعل « امن » فى اللغة المصرية القديمة الذى معناه « يختفى ». وروى بلُوتَارْخْ المؤرخ اليونانى فى كتابه دى أسيد « De Iside » ان لفظة امون على ما جاء فى مَنِيتُون معناها « ما خفى » أو « الخفاء » . ومما لا جدال فيه ان علماء اللاهوت كان فى ذهنهم اله يدينون به فى السر، ويسمى عندهم الاله المكتوم اسمه ؛ غير ان المعنى الأصلى لكلمة « امون » لا يمكن بأى حال من الأحوال أن يكون كما فسره هؤلاء العلماء

نفوذ المعبود المحلى

وكانت مهمة كل معبود من هذه المعبودات المحلية تنحصر فى الأصل فى حماية بلدته ، فلا سلطان له خارج حدودها . بيد أننا نجد أن طائفة كبيرة من هذه المعبودات كان لها مزايا خاصة ما لبثت أن مدت نفوذها وراء مناطقها ، مما يدل على انتشار الآراء الدينية فى تلك العصور السحيقة . مثال ذلك ان المعبود امون اله طيبة كان أيضاً اله الخصب والنماء فى مصر كلها ، والمعبود « من » اله « قِفْط » الذى يمثل عند اليونان الأقدمين بالاله « بان» كان من ميزاته حماية اسراب الماشية والسبل والقوافل وبخاصة طريق الصحراء الذى يبتدئ من « قفط» مخترقا الجبال والصحارى الى البحر الأحمر. وكذلك المعبودة « سخمت » العظيمة الهة منف كانت تعتبر الهة الحرب المخيفة التى تنكل بالعدو وتسحقه . وكذلك الالهة حاتحور معبودة « دندرة » كانت تمثل الهة الحب والفرح . وفى كثير من الأحيان عُزيت لهذه

الآلهة المحلية علاقات بقوى الطبيعة وبخاصة الأجرام السماوية ؛ فالمعبود تحوت اله الأشمونين « هرموبوليس » وهو الذى مثله اليونان بمعبودهم « هرميس » كان يعتبر اله القمر وقد ظهر بهذا المظهر فى متون الاهرام . وكان الاعتقاد السائد عند الأقدمين انه هو الذى حدد فصول السنة ووضع نظام الطبيعة ، ولهذا اعتبر أيضاً مخترع الكتابة واللغة وخالق المواقيت والمقاييس واله العلم والعرفان

الالهة التى تنسب الى الشمس

وأعظم من ذلك أنهُ كان بين معبودات قدماء المصريين المحلية عدد وفير ينتسب الى أعظم الأجرام السماوية اضاءة ونعنى بذلك كوكب الشمس ، فكان كل من هذه المعبودات فى الأزمنة الأولى يمثل الشمس فى شكل خاص به ؛ ولكن تأثير ذلك فى تطور الديانة المصرية له شأن آخر فى حالة المعبود « حور » أو « حوريس » الذى يعد من أعم الالهة عبادة وأهمها من الوجهة القومية المصرية ؛ اذ بالرغم من أنهُ كان الاله المحلى لكثير من المدن كان يعبد فى طول البلاد وعرضها ممثلاً اله الشمس الأعظم ؛ وسنعود قريباً الى الكلام فى هذا الموضوع باسهاب . وكان هناك عدا ما ذكرنا من الالهة

الملائكة والشياطين

المحلية العظام عدد ليس بالقليل من الآلهة الصغار ومن الملائكة والشياطين الذين كانوا أقل بطشاً . ولما كان فى وسعهم أن ينفعوا القوم أو يلحقوا بهم الأذى فى أحوال خاصة كان الناس يسعون لاستجلاب رضاهم وعطفهم . فمثلاً كان يدعى بعضُ الالهات الشفيقات اللاتى كن يمددن يد المساعدة للنساء عند المخاض ؛ اذ كان القوم يعتقدون أن فى أيديهن تسهيل الوضع أو تعسيره ؛ كذلك كانوا يعتقدون وجود ملائكة تأتى للطفل الوليد فى مهده لتقرر مصيره . وكان المعبود الصغير « بس » الغريب الخلق من اكثر هذه

المعبودات محبة ؛ فكان القوم يعتقدون أنه أتى الى مصر من بلاد « بُنْتْ » (الصومال) بلاد الروائح العطرية ؛ ولذلك كانت ميزته حماية الروائح الزكية وألوان زينة الوجه والمرايا وكل ما يلزم للتأنق فى الزى

واذ كان للاله المحلى قوة تفوق قوة البشر كان له تأثير محدود فى حياة بنى الانسان ويقدمون له فى مقابله العطايا والقرابين . وكان هذا الاله فى اعتقاد القوم يظهر لعباده فى شكل واضح جلى ، فكما أن روح الانسان تأوى جسده الظاهر كذلك يتخذ الاله له مأوى خاصاً يكون مظهراً له . وقد جرت العادة أن يتخذ الاله سكناً له الأحجار والأشجار والعمد والحيوانات. فمثلاً اله مدينة « دودو » التى عرفت باسم أبى صير فيما بعد كان يأوى قطعة خشب ساذجة ؛ وكذلك اله الطرق «من» فى مدينة قفط كان يظهر اما على شكل عصا أو على شكل تل من الأحجار . والأغلب أن هـذا التل كان يوضع بجانب الطريق ليضيف اليه كل سابل حجراً جديداً كما نشاهد عند البدو الآن . وكانت المعبودة « حاتور » تسكن شجرة الجميز كما كانت آلهة أخرى مجهولة الاسم تأوى الى شجرة الزيتون . على أنه كان أكثر شيوعاً مما ذكر أن يتصور الانسان الاله فى هيئة حيوان ، يدلك على ذلك أن اله الماء « سبك » الذى كان يعبد فى جهة الفيوم كان يظهر على شكل تمساح ؛ وظهر معبود منديس لعبـاده فى شكل جدى ، وظهر « خنم » معبود مقاطعة الشلال فى شكل تيس، وظهر «آمون» معبود طيبة فى شكل كبش بقرون ملتوية تغطى أذنيه ؛ وتجلى « وبوات » اله أسيوط فى شكل ذئب وكان « تحوت » معبود بلدة هرموبوليس (الأشمونين) يظهر فى هيئة قرد أو أبو قردان ؛ وكثير من الآلهة كان يظهر فى هيئة باشق كاله الشمس

مظاهر الالهة المحلية

« حوريس » واله القمر « خنس » معبود طيبة واله الحرب « منتو » الذى كان يعبد فى طيبة وفى « هرمنتس » ؛ أما الألهات المختلفة فكن يظهرن فى هيئة القطط واللبوات والعقبان والحيات . فكانت « سخمت » الهة منف و « بخت » الهة بنى حسن تظهر كل منهما فى شكل لبؤة كما كانت الهة بوبسطة تظهر فى ثوب قطة و « حاتحور » الهـة دندرة فى شكل بقرة، وكانت « موتْ » الهة طيبة و « تحبت » الهة الكاب تمثلان فى شكل انثى العقاب . أما « بوتو » معبودة الوجه البحرى فاتخذت الحية شكلاً لها وان تقمصت الفار أحياناً . ومما سبق يتضح جلياً أن الموضوع الذى سنتناول البحث فيه هو موضوع ديانة وثنية تامة النمو والتطور

مظاهر الالهات المحلية

وقد يتبادر للذهن لأول وهلة ان هذه التخيلات الساذجة عن الالهة غريبة فى بابها ولا تليق بأمة متحضرة، بل قد وقع بالفعل أن اليونان والرومان لما اختلطوا بالمصريين لأول مرة هزوا رءوسهم استهزاءً بهذه العقائد والتخيلات ، غير أن أشباه هذه التخيلات لم تعدم اضرابها بين بعض الأمم المتمدينة الأخرى كالساميين واليونان الأقدمين أنفسهم ؛ فان الساميين كما نعلم كانوا يعبدون الآلهة فى شكل الأشجار والأحجار والعمد والحيوانات ؛ كذلك نعرف عن اليونان أن «هرميس» اله المراعى والطرق كان يظهر عندهم فى شكل كومة من الأحجار، كما كان يظهر مثيله المعبود «من» عند قدماء المصريين . وكان الاله « وبوات» يتجلى فى شكل ذئب والاله « ارتميس» فى شكل « دب » والالهة « هيرا » زوج الاله « زوس » فى ثوب بقرة . واذا علمنا أن الطائر المقدس للمعبود « زوس » هو النسر وللمعبودة « أَفْرُدَيْتى » هو اليمامة وللالهة « أثينا » هو «البومة» فان ذلك لا شك يدل على أن هذه

التشابه بين الهة قدماء المصريين والساميين واليونان

المعبودات كانت فى الأصل تجلى لعبَّادها فى صور هذه الحيوانات . وقد خطت هذه الوثنية خطوة الى الامام فى عهد الاسرة الثانية ، اذ بدأ قدماء المصريين يمثلون معبوداتهم فى شكل انسان ؛ فقد أخذ الاله يظهر بجسم انسان ورأس الحيوان الذى يأوى اليه ، وكان يرتدى الملابس التى كان يرتديها المصريون أنفسهم وهى عبارة عن قميص قصير مدلى خلفه ذيل حيوان اسوة بأزياء الملوك الأول . وكذلك كان يحمل عنوانا على قوته سيفا وصولجانا . أما الاهة فكانت تحمل فى يدها ساقا طويلا من نبات البردى

الاله فى شكل انسان برأس حيوان

وقد كان لهذا الانقلاب أثر ظاهر فى تلك الوثنية القديمة ، فتحولت الأوتاد المقدسة الى أصنام ذات صور بشرية وذلك بجعل الوتد يظهر فى شكل جسم مزمل بالأربطة . ولا يبعد أن تكون صورة المعبود « من » نشأت من هذه الفكرة ؛ بل ربما صح ذلك أيضا فى «فتاح» اله منف . وقد حدث مثل ذلك الانقلاب حتى فى الآلهة التى كانت من بادئ أمرها تظهر فى شكل حيوانات ، غير أن رأس المعبود بدلا من أن تكون رأس انسان بقيت رأس الحيوان المقدس لدى هذا الاله ؛ فكان « سبك » يمثل بانسان رأسه رأس تمساح ، والاله «تحوت» يمثل بجسم انسان ورأس (أبو قردان)، ومعبودات أخرى كانت تمثل بجسم انسان ورأس باشق . وكانت المعبودة « سخمت » تظهر بجسم امرأة ورأس لبؤة والاهة « حقت » بجسم امرأة ورأس ضفدعة . ومهما ظهرت أمامنا هذه الأشكال بمظهر السخافة وخرجت فى نظرنا عن حد المعقول، فان الانسان لا بد أن يعترف بأن أهل الفن من المصريين أظهروا فى صنع التماثيل وعمل النقوش البارزة كفاءة عجيبة ومقدرة نادرة فى تركيب رأس الحيوان على جسم الانسان . ومن وقتئذ لم يتزحزح

مهارة المصريين فى صنع التماثيل

المصريون عن معتقداتهم القديمة فى معبوداتهم قيد شعرة، بل ظلوا يمثلونها فى أشكالها الوثنية الى أن انمحت من العالم جملة

وفضلاً عن هذه الآلهة المحلية التى كان يتخيلها المصريون فى ثوب حيوانات، كانت هناك حيوانات أخرى تعبد على أنها آلهة فى ذاتها، ولها أماكن خاصة تقدس فيها، وتفوقت فى ذلك الحيوانات التى كانت تسترعى أعجاب الفلاح المصرى بما لها من القوة التى تفوق قوة البشر، نخص بالذكر منها اثنين أخذ الأقدمون يعبدونهما من أقدم أزمانهم وظلوا كذلك الى آخر عهدهم؛ ونعنى بذلك العجل «منفيس» المقدس آله هليوبوليس والعجل «ابيس» معبود منف. وقد روى المصريون أن ثانيهما (العجل ابيس) نشأ من قبضة من نور نزلت من السماء فى رحم بقرة، فحملته ثم وضعته ولم تحمل بعده قط. ومن مميزات هذا العجل أنهُ أسود اللون مشوب بنقط بيضاء، وعلى جبهته مثلث أبيض، وفى جانبه الأيمن هلال، وكان يغطى ظهره عادة برداء أحمر. وقد جدّ الكهنة بتخيلاتهم وابحاثهم اللاهوتية لوضع رابطة بين هذا العجل المبجل وبين «فتاح» معبود مدينة منف المحلى. فقالوا ان العجل هو ابن فتاح، أوكما كانوا يعبرون عنهُ بلغتهم الدينية أنه مكرر حى من الإله فتاح.

العجل ابيس

على أنى فى كل ما تقدم قد آثرت البحث فى الظواهر الفردية فى الديانة المصرية القديمة، وبينت أن تلك الديانة كانت قائمة فى الأصل على وجود معبود لكل جهة هو الساهر على حمايتها. بيد أنه كان عند المصريين بعض عقائد دينية مشتركة بين جميع الشعب، فهى إرث القوم العقلى يشتركون فيها كما يشترك كل مصرى فى اللغة التى كانوا يتخاطبون بها. فمن ذلك أنه بالرغم من كل الخلافات السياسية، كان الشعب المصرى على بكرة أبيه يعتقد وجود كائنات فوق البشر تتجلى فى قوى

الطبيعة . ومن بين هذه الآلهة «حوريس» اله الشمس ، فقدكان المصريون أجمعون يتخيلونه فى صورة باشق له ريش زاه يحلق به فى السماء ، فيفيض من نوره على العالم . غير أن هذا المعبود السماوى كان له فى بعض الجهات علاقات وروابط خاصة تربطه بحياة أهلها . فكان فى هذه الأحوال يعزى اليه حماية طائفة صغيرة من الناس ، أو بعبارة أخرى كان يعتبر الآله المحلى لتلك الجهة. ومن هنا أصبح حوريس الذى كان فى الأصل يسكن الأفق فحسب ، الاله المحلى لمدن متنوعة . وكذلك « سبك » إله الماء ، فقد كان فى بادىء الأمر معروفاً فى طول البلاد وعرضها بأنه شيطان يقطن الماء ويظهر للناس فى ثوب تمساح ، ولكن على مر الأيام اكتسب احتراماً خاصاً فى بعض الجهات ، فأصبح الاله المحلى فى المدن التى تتوقف سعادتها وشقوتها على الماء كأقليم الفيوم وجزر الجبلين «أمبُص» فى الوجه القبلى وكمدينة «خنو» الواقعة على مقربة من دوامات السلسلة الحالية . وبهذه الكيفية أصبحت قوى الطبيعة المختلفة آلهة محلية فى كثير من الأحوال ، وصار لها احترام خاص

الاله حوريس فى صورة باشق

الاله سبك

ومما سبق يتضح كيف أن الاله الواحد كان يعبد فى جملة مدن مختلفة، غير أن هذه الحقيقة يمكن أن تعلل كذلك بالهجرة التى حدثت فى العصور القديمة جداً . ولفهم ذلك نتخيل أن سكان بيئة خاصة هجروا منازلهم واتخذوا لهم موطناً آخر فى أقليم جديد . فمن المحقق أنهم يحملون معهم الههم المحلى ، ويشيدون له معبداً فى مأواهم الجديد . يضاف الى ذلك أن سكان بيئة خاصة أو بيئات كانوا يلاحظون أن الهاً معيناً يحمى ذمار أقليمه ، ويدافع عنه بيد من حديد ، ويغدق عليه من نعمائه، ويأتى بالمعجزات تلو المعجزات ، فيعقدون الخناصر على حج هذا المعبود العظيم ، ويقيمون له معبداً جديداً فى بلدتهم ،

اسباب عبادة الاله الواحد فى جهات مختلفة

وينصبون تمثاله فيه ، ويقدمون له القرابين ، ليفيض كذلك عليهم من نعمائه وخيراته العظيمة . وبهذه الطريقة أصبحت بعض الآلهة تسكن مدناً لم تكن موطنها من قبل ، فتستحوذ لها على مكان بجانب اله الاقليم المحلى ، وبذلك يصير لها أتباع جدد يعبدونها ، وقد تصبح أحياناً حماة وحراساً لوطنها الجديد

كذلك اذا عاش سكان اقليم من الاقاليم مع جيرانهم فى سلام وأمان تدور بينهم علائق الود والمصافاة ، فان كلا من الهي الأقليمين تكون له منزلة واحترام عند جيرانه من أهل الاقليم الآخر . وكان الآلهة كبنى الانسان يتزاورون فى أيام خاصة ، بل أنه كان يوجد بمعبد المدينة مقصورة خاصة للمعبودات الأجنبية تعبد فيها على حسب طقوسها ورسومها الخاصة . ومن ذلك يتضح أن معبود الجهة ، وأن كان صاحب المكانة الأولى في نفوس أهل اقليمه ، لم يكن المعبود الوحيد الذى يقدس في صقعه . بل كانت الآلهة الأخرى توضع بجانبه (بصفة ضيفان له) لتعبد ، وتقدم لها القرابين ، ويضرع اليها الأهالى

وكذلك كانت تنتشر عبادة بعض الآلهة بانضمام بعض الأقاليم الصغيرة الى بعض لتأليف وحدة كبيرة ، فأن آلهة تلك الأقاليم تصبح بطبيعة الحال محور التعبد فى المجتمع الجديد الذى يتألف من هذه الوحدات المختلفة . وقد عمد الكهنة من أول الأمر الى ايجاد نظام لترتيب المعبودات المختلفة التى كانت تستوطن أى مدينة بهذه الطريقة ، ووضع كل منها فى المرتبة التى تليق به . ولأسباب لا تزال سراً غامضاً لدينا جعلوا هذه الآلهة فئات كل فئة تتكون من ثالوث أو (ثلاثة آلهة) . وقد كانت الطريقة المتبعة عادة في هذا التقسيم أن يعين الاله الأكبر ، ثم تضاف اليه الهة زوجة له ، ويكون

الثالوث عند قدماء المصريين

لهذين ثالث هو ولدهما . ففى طيبة مثلاً كان عظيم الآلهة المعبود آمون ومعه زوجته الالهة «موت» وابنهما اله القمر « خُنْس »، وكذلك كان تثليث منف يتألف من « فتاح » الاله الأعظم، وزوجته «سخمت» ، وابنهما « نُفِرْتُمْ » . وفى جهات قاصية أخرى كالفنتين (اصوان) كان للمعبود « خنم » اله الشلال زوجان بدلاً من زوجة وابن، وهما « ساتت » و « عنقت »

ومما لا شك فيه أن رواج عقيدة ما عن اله خاص من الالهة المحلية كانت تكسب هذا المعبود فى كثير من الأحوال شهرة دينية اكثر من غيره. غير أن السبب الأعظم فى تلك الشهرة كان يرجع الى ما للمدينة أو الجهة من المنزلة السياسية . فاذا حدث مثلاً أن مدينة صغيرة أصبحت صاحبة السلطان على اقليم شاسع ، فان اله تلك المدينة يمتد نفوذه حتى يصير اله ذلك الاقليم وحاميه ، فيعبد فى معابده مع الآلهة المحلية

شهرة المعبود شهر المدينة موقوفة على التى يعبد فيها

ولما تأسست مملكتان عظيمتان فى الوجه القبلى والبحرى، صار الاله المحلى للمدينة التى وفد منها الملك واتخذها مقراً لملكه مفضلا على سائر الآلهة؛ ثم رفع الى مرتبة عليا فصار اله المملكة كلها وحاميها . فاصبح «حوريس» معبود «بهدت» اله الوجه البحرى، و«ست» معبود «امبص» اله الوجه القبلى

وكان الملوك يعتبرون خلفاء هذه المعبودات فى الأرض متقمصين أرواحهم . لذلك كان الملك يدعى بالاختصار حوريس أو ست

الملك خليفة الاله فى الارض

ولما قامت الحرب بين القطرين ، الوجه القبلى والبحري ، وظلت مستمرة سنين عدة، كان القوم يعتقدون أن « حوريس » و « ست » اشتركا فى الشجار، وانجلت المعركة بانتصار « حوريس » على «ست»، وهكذا كان مصير الشعب موقوفاً على مصير الآلهة

وقد انمحت أثار تلك الحروب الأولى من أذهان القوم فى العصور المتأخرة ؛ غير أن الناس كانوا لا يزالون يذكرون النضال الذى قام بين «حوريس» و«ست» ؛ بل أن الكهنة أخذوا يبثون فى هذه الخرافة معنى عميقا . فقالوا أن «حوريس» اله الشمس الساطع أورى نار حرب مستمرة على « ست » اله الظلام الحالك ، فكان حوريس يُهزَم كل غروب ولكنه يشرق فى الصباح ثانية فى شكل جديد وينازل عدوه كرّة اخرى . ولما اتحدت مصر وصارت دولة واحدة تحت حكم ملك واحد لأول مرة فى التاريخ، كان فرعون يعتبر الممثل للألهين فى الأرض ؛ أى أنه هو «حوريس» و«ست» فى شخص واحد ؛ أو بعبارة أخرى (اذ هزم النصف الشمالى من المملكة النصف الجنوبى) هو «حوريس» الواقف فوق اله «أمبص» أى الصعيد. وقد مثل الدور بعينه فيما بعد حينما استعرت نار الحرب للمرة الثانية بين المصريين فاشترك فى النزاع الهتا مدينة «بوتو» حاضرة الشمال ومدينة «الكاب» حاضرة الجنوب . فكانت آلهة « بوتو » تظهر فى ثوب حية ، وتعبد فى كل الدلتا ؛ ومعبودة الكاب تظهر فى شكل رخمة وتعبد فى جميع الوجه القبلى . ولما اتحد القطران للمرة الثانية أصبحت هاتان الالهتان هما الحارستين الخاصتين لفرعون مصر ، وبقيتا كذلك الى ما شاء الله . ومن ذلك يظهر أن جزءا من تاريخ مصر السياسى قد ترك له منذ أقدم العصور أثراً بيناً فى معتقدات القوم الدينية

النضال بين حوريس وست

الهتا بوتو و نخبت

وقد لعب الاله «أُزريس» دوراً خاصاً بين الآلهة المصرية المحلية لم توفق البحوث العلمية بعدُ إلى تفسيره . كان أُزريس هذا فى بادئ الامر يقطن الدلتا ، ويحتمل أنه كان في بلدة بوصير ، ومن ثم انتشرت عبادته في طول البلاد

وعرضها ومن أهم المدن التى كان يعبد فيها العرابة المدفونة (على مقربة من البلينة)؛ وهنا أقيم له قبر فى العصور المتأخرة بين قبور الملوك الأقدمين. وقد تواترت عن هذا الاله اسطورة من أحب الأساطير التى تروى عن الآلهة المصرية؛ والاشارة اليها متعددة فى أقدم المتون المصرية التى بين أيدينا، ونعنى بذلك متون الاهرام

قبر أزريس

ومما يؤسف له أنه لم تصل الينا من الأقدمين قصة متصلة عن هذه الخرافة، ولذلك ترانا مضطرين الى قصها كما وصلت الينا من العصور المتأخرة بشكلها المحرف نقلاً عن بلُوتَارْخ :

قصة أزريس نقلا عن بلوتارخ

يقال أنه كان لالهة السماء «ريه» (وهى عند المصريين نُوت) واله الأرض كرونس (وهو عند المصريين جِبْ) أربعة أولاد وهم الألهان أزريس وست (والأخير عند اليونان تِيفون) والآلهتان أزيس ونفتيس. وقد تربع أزريس على عرش مصر، وأسعد أهلها، فسن لرعاياه القوانين العادلة، وعلمهم احترام الالهــة، ونشر بينهم فن الزراعة، ثم طاف فى أنحاء البلاد رسولاً للمدنية غير معول فى ذلك على القوة، بل على جذب قلوب القوم اليه بالإغراء والتعليم تارة، وبكل أنواع الغناء والموسيقى تارة أخرى. لذلك كان يعتقد اليونان الأقدمون أنه دايونيوس

تعاليم أزريس

ولما عاد من طوافه تآمر عليه أخوه ست ومعه ٧٢ شخصاً آخرون. وقد حصل سراً على مقاس جسم أزريس، وصنع حسب هــذا المقاس صندوقاً جميلا محلى بأبهى أنواع الزينة، وأحضره معه فى وليمة أعدها لأخيه. وفى أثناء الوليمة استرعى جمال هذا الصندوق أنظار المدعوين، فوعد ست مازحاً أن يعطى هذا الصندوق لمن يتفق مقاسه معه تماماً اذا اضطجع فيه.

تآمر ست على أخيه أزريس

فجرب كل الحاضرين (وكانوا على علم بالمكيدة)، فلم يتفق الصندوق مع واحد منهم. وفى النهاية اضطجع فيه ازريس، فانطبق عليه تمام الانطباق. واذ ذاك أسرع المتآمرون، وسمروا الصندوق من الخارج، وصبوا فوقه رصاصاً ذائباً، وحملوه الى النهر، ودفعوا به الى البحر عن طريق الفرع التانيتي للنيل.

ولما علمت أزيس بموت زوجها وأخيها جدت فى البحث عن جثته، وبعد جهد ونصب أخبرها بعض الصبية، ان الصندوق التى به فى النيل، فسار مع التيار الى البحر، ثم وصل الى مسامعها كذلك أن الصندوق رسا على الشاطئ بالقرب من «بيبلُص» (فى سورية)، وهنالك نمت حواله شجرة ضخمة واشتملت عليه فى ساقها. ولما رأى ملك تلك الناحية هذه الشجرة اجتثها من فوق الأرض وفى جوفها الصندوق، ثم اتخذها عموداً يرفع سقف بيته، فلما سمعت أزيس بذلك ولت وجهها شطر بيبلُص، حيث اتخذتها الملكة مربية لأولادها فى قصرها. وعلى مر الأيام أظهرت الالهة حقيقة أمرها للملكة، وطلبت اليها هذا العمود، فاستلته من تحت السقف، وانتزعت الصندوق منهُ، ثم رمت بنفسها عليه، وكان لا يزال موصداً، وحملتهُ معها فى سفينة، وقد بقى مغلقاً حتى وصلت مصر، ووجدت نفسها فى مأمن لا يرقبها أحد ففتحته، ثم وضعت وجهها على وجهِ الميت وقبلته بدموع حارة. ثم ذهبت بعد ذلك لابنها حوريس الذى كان يتربى فى «بوتو»، وهنالك أخفت الصندوق الذى يشتمل جثة أزريس. وبينما كان «ست» ذات ليلة يصطاد فى ضوء القمر عثر على الصندوق فعرف الجثة، ومزقها أربع عشرة قطعة، وبعثرها فى الجهات القاصية. ولم يكد ذلك النبأ يصل الى مسامع أزيس حتى أخذت تبحث عن تلك الاجزاء، ولهذا شرعت تجوب مناقع الدلتا فى زورق

ازيس تبحث عن جثة أزريس

ست يمزق الجثة

أزيس تدفن الجثة ثانيـة

من البردى . وكانت كلما عثرت على شلو من أشلاء أزريس دفنتهُ حيث وجدته . وهذا هو السر فى تعدد قبور أزريس فى مصر

ولما ترعرع حوريس واشتد ساعده ، أخذ يتأهب بمساعدة أمهِ للانتقام من ست قاتل أبيه ، وقد استمرت نار الحرب مشتعلة بينهما اياماً عدة ، وأسفرت المعركة عن فوز حوريس على خصمهِ ست . وقد كُبل ست وسِيقَ الى أزيس ، فلم تمسه بسوء ، وأطلقت سراحه ، فأهاج ذلك حنق حوريس ، وفى ثورة غضبه مزق تاج أزيس من رأسها ، غير أن تحوت « هرميس » وضع بدلاً منه رأس بقرة . تلك هى بالاختصار مشتملات هذه الاسطورة كما وصلت الينا نقلاً عن بلوتارخ المؤرخ اليونانى

حوريس ينتقم لابيه أزريس

وسأعود فى مقام آخر الى ذكر أزريس ، وتاريخ حياته ، وأبحث فيهما بإمعان ودقة

شكل الارض عنـد المصريين

كانت آراء المصريين عن الكون كآراء غيرهم من الأمم ، وخاصة عن السماوات وأجرامها ، ذات علاقة كبيرة بمعتقداتهم الدينية ، غير أنهم ربما كانوا أقل مُغالاة فى ذلك عن أهل بابل الأقدمين . فكانت الصورة التى يرسمها المصريون الدلالة على الأرض مما يبرهن أن الأفق الجغرافى عندهم كان محدوداً جداً ، فكانت مصر فى نظر المصرى هى العالم بأسره ، فهى فى عينه سطح بيضوى مستطيل الشكل يخترقه طولاً من الشمال الى الجنوب نهر متسع هو النيل ، وعلى حدوده جبال شامخة هى هضاب الصحراء التى تكتنف مصر ، وعلى هذه الجبال ترتكز السماوات . وكان المصرى يعتقد ان هذه السماوات على شكل طبق مفرطح تتدلى منه النجوم الثواقب كأنها مصابيح معلقة . وكذلك كان يرى بعضهم أن السماوات متكئة على أربعة عمد منصوبة

شكل السموات

فى أركان الارض الاربعة . واعتقد قوم ان السماوات فطرت على شكل الارض تماماً : أى أنها كذلك يخترقها نهر تخرج منه ترع عدة

العالم السفلى

وكانوا يزعمون أيضاً أن تحت الأرض عالماً سفلياً آخر (دوات) مركباً، لايختلف فى تكوينه عن الأرض أو السماوات ويسكنه الموتى . وكان للمصريين طريقة عجيبة أخرى فى تصور شكل السماء : وذلك أنهم كانوا يتخيلونها على شكل بقرة عظيمة مُثَبَّتة فى مكانها بعدة آلهة أخرى صغيرة ، ومحمولة الى أعلى بالاله « شو » ومن بطنها تتدلى النجوم . وكانوا يعتقدون ان اله الشمس يسبح نهاراً على ظهر هذه البقرة فى زورق خاص له

شكل آخر للسماء

ومن معتقداتهم ان العالم، والآلهه، وبنى الانسان، لم يوجدوا من بادئ الأمر، بل هم مخلوقات. ولكل طائفة من الكهنة نظرية خاصة فى كيفية هذا الخلق تختلف عن غيرها كما اختلفت آراؤهم فى شكل العالم نفسه . فكان اكثر الاعتقادات انتشاراً أن الاله المحلى اى معبود المدنية هو أيضاً بادئ السماوات والأرض . فأهل مدينة منف مثلاً اعتقدوا ان معبودهم المحلى الاله « فتاح » ، ذلك المصور العظيم ، نحت الأرض كما تنحت التماثيل . وكذلك فى جهة الفيلة حيث عُبد الاله « خنم » حارس تلك الجهة وحاميها ، كان يعتقد الناس انهُ هو خالق العالم : قبض قبضة من غرين النيل وسوى منها العالم كما يصنع الخزاف الفخار بآلة . وفى مدينة سايس (صا الحجر) كان القوم يعتقدون أن « نيت » الهة هذه الجهة فطرت العالم كما ينسج الناسج قطعة من القماش . على أن هذه الاعتقادات المحلية فى تكوين العالم لا ينبغى ان نفهمها بشكلها الحرفى ، أذ كان بلا مراء للخيال الشعرى أثر كبير جدًّا فى كثير منها

نظريات خلق العالم

أما أعظم هذه الاعتقادات انتشاراً فيحتمل أنهُ أتى من ناحية طائفة كهنة عين شمس . وذلك أنهُ فى بادئ الأمر كان يوجد جسم عظيم من الماء يدعى « نن » ، يشتمل على جراثيم الحياة من ذكر وأنثى ، ومن هذا الماء فطرت الشمس أى « رع » كما يسميها المصريون. وكان هذا الماء يشمل كذلك اله الأرض « جب » ، والهة السماء « نوت » متعانقين . وقد بقيتا كذلك حتى فصل بينهما « شو » اله الهواء ، فحمل الهة السماء على ذراعيه الى الطبقات العلوية

نظرية كهنة عين شمس فى خلق العالم

ومن آلهة المصريين كذلك النيل الذى يهب مصر الحياة ويحفظ كل بنى البشر بما يمنحهم من الطعام والغذاء . وكان يمثل عندهم فى شكل ذكر وأنثى فى آن واحد فله من الأنثى ثدياها ومن الذكر لحية طويلة تكتنف وجهه. أما لباسه فكان كلباس البحار المصرى

النيل اله

على أن المصريين كانوا قبل كل شيء يعتقدون فى الوهية الاجرام السماوية. ولا غرو ، أفلم يكن من الطبعى أن الفلاح المصرى اذا القى بنظره فى ليلة قمراء صافية الاديم الى السماء المزينة بالنجوم الزاهية مال الى الاعتقاد بان هذا العالم العلوى تسكنه آلهة ايضاً ؟ فلا عجب اذن ان يرى فى الجوزاء أجمل الأبراج المصرية الهاً لهُ ؛ وفى نجم الشعرى اليمانية الهة تسمى « صوبد » ، بل لا عجب ان كان يعتبر الشمس معبوداً يسيطر على الكون . وقد تنوعت النظريات الخاصة بالشمس (اعظم الاجرام السماوية ضوءاً) عند طوائف الكهنة المتعددة فى البلاد . وقد ذكرت آنفاً ما اعتقد انه الفكرة السائدة عند المصريين عن الشمس : وهى القائلة بأنها صقر (هو الاله حوريس) يحلق فى السماء بريشه الساطع . وهناك آراء أخرى ؛ ففريق رأى ان اله الشمس

الاجرام السماوية آلهة

أعظمها الشمس

كان يسبح أثناء النهار على سطح ماء السماء كالبحار المصرى ثم ينزل حتماً عند الغروب الى العالم السفلى ويستمر هناك فى سياحته (ليظهر فى اليوم الثانى فى خلق جديد) . وفريق آخر كانوا يمثلون اله الشمس فى شكل جعران ، وهو تمثيل يبدو لأول وهلة مضحكاً ، ولكن لا تلبث أن تزول غرابته . فكما ان الجعران يرى عادة فى النهار وهو يدحرج امامهُ كرة صغيرة تحتوى على بويضاته ، كذلك يرى اله الشمس فى خلال النهار وهو يدحرج امامهُ فى السماء كرة الشمس ، ومع ذلك فان طائفة أخرى كانوا يعتقدون أن فى كل صباح تنبت من وسط الماء زهرة زنبق تشتمل على طفل صغير هو اله الشمس جالساً فى نوّرها .

أشكال اله الشمس المختلفة

وقصارى القول ان الصورة التى تسنى لى أن أرسمها امامكم اليوم عن اقدم شكل للديانة المصرية القديمة على قدر ما وصلت اليـهِ معلوماتنا هى بلا شك صورة مركبة من عناصر متنوعة جدًّا : فمن جهة رأينا فيها المعبودات المحلية ، ومن جهة أخرى رأينا المعبودات السماوية التى تبعد عن الانسان بعداً سحيقاً لا نهاية لهُ . وسيكون موضوع بحثى التالى الطريقـة التى بها مزج علماء اللاهوت بتخيلاتهم الدينية هذين العنصرين وكيف ان هذا الامتزاج انتج ديانة تكاد تكون جديدة

المحاضرة الثانية

نمو الديانة المصرية وارتقاؤها

المصرى محافظ على العادات

من الحقائق المألوف ذكرها عن قدماء المصريين انهم كانوا أمة محافظة بدرجة عظيمة ، ولا ريب فى صحة ذلك ، فقد تمسك المصريون أيما تمسك بالعادات والأخلاق التى توارثوها عن اجدادهم الأولين . بيد انهُ لا يستنتج من ذلك ان المدنية المصرية كانت عقيمة قاحلة ، وانها بقيت راكدة آسنة مدة آلاف من السنين ، لم تخط الى الأمام ، ولم يدخل عليها أى تغير منذ انبثاق فجر التاريخ . بل الواقع اننا نشاهد فى لغة المصريين وفى كتاباتهم وآدابهم وفى حياتهم السياسية وفنونهم وصناعاتهم تقدماً محسوساً مستمراً. حقا ان ذلك لا يمكن أن يسترعى نظر القارئ غير الجاد، فانهُ يمر فى قراءته على جملة حقائق غريبة جديدة، ولا يكون تأثيرها الأول فيه الا انها كلها متشابهة .

نمو مدنيتهم

أما الباحث المدقق فانهُ لا يلبث أن يرى تدريجاً أن المصريين كسائر أمم العالم تنمو حياتهم العقلية والنفسية ، وتتمشى مع الزمن ؛ وانها فى حركة دائمة لا تركد قط

ولم تشذ من ذلك الآ حالة واحدة بقيت فيها روح المحافظة سائدة على مر الأيام. وذلك ان القوانين التى أخرجت للقوم فى عهد فطرتهم بقيت سائدة فى البلاد مدة آلاف من السنين ؛ ومن ثم نسجت مدنية القوم فى نموها على منوال يكاد يكون نفس المنوال الذى نسج عليه المصريون الأول، فى عهد فطرتهم . ويمثل ذلك جلياً كتابة القوم وفنونهم الجميلة ومعتقداتهم الدينية .

ومما لامراء فيه ان بعض الآراء الجديدة قد التحمت فيما بعد بالأصل القديم بوجه عام . غير ان الديانة المصرية ، التى كانت منذ نشأتها نتيجة لملاقات سياسية خاصة لم يطرأ عليها أى تغيير جوهرى ، اللهم الاّ فى حادثة واحدة دونها التاريخ لنا وكانت عاقبتها الفشل التام

المحافظة على الديانة

يذكر القارئ انه تألف من الإمارات الصغيرة التى كانت تتكون منها البلاد المصرية فى عهد فطرتها مملكتان، الوجه البحرى والوجه القبلى. ولم تصر البلاد وحدة سياسية الا بعد أن أخضعت الأولى الثانية ، وأصبحت حاضرة مصر المتحدة اذ ذاك مدينـة هليوبوليس (أون) . وهذا الاسم معروف لقراء التوراة؛ لأن زوجة سيدنا يوسف عليه السلام كانت بنت بوتوفيره رئيس كهنة بلدة (أون) الواقعة على مسافة بضعة أميال من الشمال الشرقى من مدينة القاهرة الحالية . وكان « أتُم » معبودَها المحلى ذا علاقة باله الشمس. والظاهر انه كان فى اعتقاد القوم هو الشمس المضيئة نفسها، أى « رع » الذى كانت تتعبد به الناس . وكان يعتبر الاله « الذى يسكن فى بيضته (اى الشمس) ويفيض على الكون أشعته من مسكنه السماوى » وهو الذى « يشرق فى أفقه ويسبح فى نحاسه الأصفر (أى صحيفة السماء)، والذى لا مثيل له بين طائفة الالهة ، والذى يضىء العالم بنوره الساطع »

أتم معبود عين شمس

وكان يقيم الأهلون له داخل المعبـد عموداً من الحجر يصلّون عنده ليوصل العبادة الى الاله الأعظم. ويحتمل ان هذا العمود كان يقام فى الساحة المكشوفة من المعبد. وعلى مر الأيام أخذ هذا العمود شكلاً منتظماً متناسباً وعرف بعد بالمسلة وهى عمود مستدق ، قمته على شكل هرم صغير

أصل المسلة

وفى حين كان سائر الالهة السماوية العظام ماضيةً كل فى طريقه بمعزل

عن الناس أخذ اله الشمس معبود هليوبوليس المحلى ينشئ له الروابط بنى الانسان، وصار يُعبد بوجه خاص ، وكان فى نظر القوم أعظم الالهة وأشدها قوة . على أن كهنة هليوبوليس لم يكتفوا باعلان هـذه المناقب، بل أخذوا يبذلون جهدهم فى استنباط ما يترتب عليها. وبهذه الطريقة أمكنهم الوصول الى فكرة عميقة عن كنه الاله . فاهتدوا أولاً الى أن اله الشمس اله واحد فقط هو « رع » ، وان اله الشمس القديم اى حوريس الذي كان يحلق فى السماء على هيئة باشق هو فى الحقيقة رع ، وان الفرق بين الاثنين فى الاسم فقط . لذلك أطلق الكهنة على حوريس اسم « رع حوريس الذى يستوى على الأفق » . وظهر هذا التركيب أيضاً فى صورة هذا المعبود ، فترى فيها حوريس وله رأس صقر يحمل عليها قرص الشمس

ابحاث كهنة عين شمس فى أصل الاله « رع »

كذلك قيل ان « اتم » المعبود المحلى القديم لمدينة هليوبوليس هو اله الشمس « رع حوريس » ، واعتبر أيضاً فى جوهره نفس الاله رع لا فرق بينهما الا فى الرسم . يضاف الى ذلك « خُبررع » اله الشمس القديم الذى كان يصور فى شكل جُعَل، فانه مثال آخر لهذا التطور . والحقيقة ان كل هذه الالهة كانت تعتبر مظاهر خاصة لمعبود واحد ، أو بعبارة أخرى أسماء لاله أحد فرد صمد

أسماؤه المختلفة

وهذا الرأى يتفق تمام الاتفاق مع الوظائف الخاصة التى كانت تنسب لكل اله من آلهة الشمس هذه . فمثلاً كان « رع حوريس» أو «خبررع» يعتبر انه الشمس وقت الغروب و « اتم » الشمس وقت الشروق . فإنّ الأهلين كانوا يعتقدون ان الشمس تخترق السموات فى فُلك فتقضى سياحتها فى أول النهار فى المركب « منزت » الجميلة ، وتقضى رحلة المساء فى الزورق

أسماؤه فى سياحته اليومية

« مسخت » الذي كان يسبح بها وراء الأفق الغربى الى جبال « منو » الخرافية . ومنذ ذلك العهد تحولت الخرافات العدة التى نسجها خيال الجهات المختلفة عن حركة الشمس اليومية الى الاله الأحـد « اله الشمس » معبود هليوبوليس ؛ ومن ثم نشأت متناقضات بعضها من الغرابة بمكان . ولم يبذل علماء اللاهوت أى مجهود فى التوفيق بينها . ومما لا شك فيه ان عدد الخرافات التى تعزى الى الشمس كان وفيراً جداً ، اذ الاشارة اليها لا يكاد يخلو منها متن ديني ، غير أنه للأسف لم يصل الينا منها الا جزء ضئيل جداً

وسنفصل القول فى احدى تلك الخرافات التى تعزى الى الشمس حتى يتصور القارئ صورة واضحة عن امثال هذه الخرافات المصرية القديمة وماهيتها

أسطورة عن اله الشمس

وكان « رع » اله الشمس يمثل فى هذه الخرافة فى شكل ملك له السيطرة التامة على الآلهة و بنى البشر جميعاً . وكان كأمراء الأرض يتربع على أريكة ملكه ويناجى رعاياه ويشاطر بنى الانسان فى أفراحهم وأتراحهم . بيد أنه حُرم بنوع خاص قوة الشباب الأبدية ، فكان يطعن فى السن بمرور الأيام ، وأخذ النـاس يعصون أمره لشيخوخته كما يفعل المصريون اذا سلط عليهم ملك اشتعل منه الرأس شيباً . هذه كانت مكانة الاله رع فى بداية الخرافة التى سنقصها نقلاً عن الآثار : —

كان جلالته (الاله) طاعنا فى السن : عظامه من فضة ولحمه من ذهب وشعره من اللازورد الخالص . ولكن الناس تآمروا عليـه ففطن جلالته لأغراض الخلق ، وقال مخاطباً أتباعه : آتونى عينى (أى المعبودة حاتحور) والمعبود « شو » والمعبودة « تفنت » وكل الآباء والأمهات المقدسة الذين كانوا بصحبتي حينما كنت لا ازال في المحيط الأزلى « نن » وآتونى أيضاً

بالاله « نن » ذاته ومعه كل خدمه . وليكن حضورهم الى هنا خفية حتى لا يراهم بنو الانسان . تعالوا معهم الى القصر لكى نأخذ بنصيحتهم؛ وتلبية لأمره ذهبت هذه الآلهة الى حضرته وجثوا أمامه حتى لطمت جباههم الارض

ثم قالوا لجلالته . تكلم حتى نسمع . فقال « رع » مخاطباً « نن » : أنت يا أكبر الآلهة سناً، يا من منحتنى الوجود ، وأنتم يا أجدادى المقدسين، لقد رأيتم كيف ان هؤلاء الخلق الذين نبتوا من عينى قد ثاروا علىّ . فالآن أريد أن أسترشد برأيكم فى أمرهم لأنى لا أود أن أذبحهم حتى اسمع نصيحتكم فى هذا الأمر

فأجابه جلالة الاله « نن » : يا بُنَىّ رع ، أنت أيها الاله الذى فاق أباه عظمة وفاقت قدرته قدرة من خلقوه ، ابق (هادئ البال) على عرشك، فان الخوف منك عظيم لو أنت ألقيت مجرد نظرة نحو من تآمروا عليك . فقال جلالة رع : انظر كيف يولّون الأدبار فى الصحراء وقلوبهم وجلة مما قالوه . ثم قالوا (الالهة) لجلالته : دع عينك (اى الآلهة حاتحور) تنزل الى الأرض حتى تقتل هؤلاء الذين اقترفوا اثما ضدك (وهكذا قضى الأمر)

ثم عادت الالهة حاتحور بعد أن ذبحت خلقاً كثيراً في الصحراء ، وعندئذٍ قال جلالة هذا الاله (رع): مرحباً يا حاتحور ، هل قمت بأداء ما أُمرتِ به ؟ فأجابته حاتحور: أقسم بحياتك لقد انتصرتُ على جميع الخلق فانشرح صدرى بذلك

بيد أن سفك الدماء لم يكن قد انتهى بعدُ ، اذ أرادت حاتحور فى اليوم التالى ان تستمر في عملها . ولكن عوامل الشفقة حركت رع نحو العباد ، فأخذ يفكر في كيفية ايقاف هذه المذبحة . فأرسل على جناح النعامة رسلاً الى

مدينة الفيلة في طلب نوع خاص من الفاكهة من هذه الجهة . ولما جيء بها أمر أن تعصر في هليوبوليس ، فصنع الجوارى من عصيرها جعة ملأت سبعة آلاف ابريق . وكان لون هذه الجعة في الظاهر يشبه دم الانسان . وقد أعدّ هذا الشراب المسكر ليكون منه خلاص بنى الانسان . وفى باكورة النهار أمر رع باحضار هذه الأباريق الى المكان الذى كانت ترغب حاتحور ان تذبح فيه الخلق ، وهنالك أريقت تلك الجعة فغُمرت الحقول بهذا السائل الأحمر . ولما حضرت حاتحور في الصباح وجدت بحيرة من الجعة ينعكس فيها محياها بصورة جميلة ؛ فشربت منها وعادت الى بيتها ثملة غير قادرة على تمييز بنى الانسان (من غيرهم) ، وبذلك سلم العباد من غضب حاتحور بحيلة من اله الشمس . على أن رع رغم ذلك سئم الاقامة بينهم فصعد إلى السماء ثانية على ظهر البقرة السماوية وأورث الأرض بعده المعبود « تحوت » (اله الحكمة)

ولم يكتف كهنة « اون » (هليوبوليس) بالتفنن فى أساطير اله الشمس ، بل صقلوا كذلك قصة الاله أُزريس ووضعوها فى شكلها النهائى هى وتاريخ النضال الذى قام بين المعبودين المحليين حوريس وست ؛ وقد قصصت ذلك عليكم فى الفصل السابق نقلاً عن بلوتارخ

وليس ببعيد أن يكون ادخال حوريس فى قصة أُزريس من صنع هؤلاء الكهنة وتفننهم ؛ اذ صار حوريس فى هذه القصة ابناً لأزريس ، أما ست عدو مصر السفلى فأصبح أخاً لأزريس وعدواً منافساً له

المتناقضات فى الاساطير المصرية

وقد تسرب بطبيعة الحال عدد وفير من المتناقضات الى أساطير المصريين وخرافاتهم بسبب اتساع دائرة الصفات التى عُزيت الى كل اله ، وانحلال بعض

أركان الأقاصيص القديمة . ومن الغريب أن كهنة عين شمس كما أسلفنا لم ينظروا الى هذه الأمور كأنها متناقضات ، بل كانوا يرون فيها حكمة بعيدة المغزى، وعلى هذا الزعم أخذوا يحلون بمهارة لا مثيل لها تلك الاشكالات التى أوجدوها ، وكان غرضهم الأسمى أن يحققوا أسماء الآلهة العظام ويبتكروا تفسيراً علمياً لأسمائهم والقابهم المختلفة

ولا يكاد يوجد متن دينى الاّ ولكهنة «آون» أثر فيه . ولا نكون مغالين (بل أننا على العكس نصيب كبد الحقيقة) اذا قررنا أن الجزء الأوفر من أدبيات القوم الدينية أنشئت أو على الأقل نشرت فى هذه المدينة . وقد بقى نشاط هؤلاء الكهنة الأدبى الى إبان العهد اليونانى، وانتشرت شهرتهم وذاع صيتهم فى بلاد اليونان نفسها . حتى الى عهد هيردوت كان لكهنة عين شمس الشهرة بأنهم أعلم كهنة مصر . وكان طلاب العلم والحكمة أمثال يودوكس وافلاطون يحجون « مدينة الشمس » ليسمعوا فيها جوامع الكلم فى الحكمة فى كليتها الدينية

أثر كهنة « اون » فى ديانة المصريين وعلومهم

وقد صحب نمو الأساطير الدينية فى مدينه عين شمس « هليوبوليس » سعىُ الكهنة لجعل النظرية الدينية الواحدة كفيلة بتصور هذا العالم، فتصوروا أنه فى بداية الخليقة برئ معبود هليوبوليس المحلى « أتُمْ » (وهو نفس الاله رع حوريس) ولذلك اُعتبر رأس الآلهة . ثم خلق بعده اله الأرض « جب » فآلهة السماء نوت ، واله الهواء « شو » . وكما أنه كان لجب زوجة بجواره كذلك وجد لشو زوجة هى الالهة « تفنت » التى فسرت بعدُ بالهة « الندى » ثم تناسلت هذه الالهة فولد « جب » و « نوت » الالهأزريس وأخته أزيس ، والاله ست وأخته نفتيس، من ذلك تكون تاسوع الالهة

أصل العالم فى نظر كهنة « اون »

التاسوع الاكبر

الذى يمثل فيه أصل خلق العالم ، وتاريخ مصر فى عهد الفطرة . وتعرف هذه الآلهة التسعة في علم اللاهوت المصرى بتاسوع « آون » (عين شمس)

وقد تألف بعدُ تاسوع ثان (ويسمى التاسوع الاصغر) على نسق الأول ، ودخل في زمرته آلهة مختلفة من المعبودات المحلية ، ووُضِعَ على رأس هذا التاسوع شكل خاص من الاله حوريس يسمى « حرسيس » أى حوريس ابن أزيس. وحوريس هذا هو بطل قصة أزريس . ولد فى مناقع الدلتا الموحشة وربته هناك أمه أزيس ، واعتبر فى هذه الحالة الجديدة الهاً من آلهة الشمس ، أما الثمانية الآلهة الآخرون المتممون حلقة التاسوع فكانوا الحامين له من شر أعدائه . ولا نعلم أسماءهم باليقين من المصادر التى بين أيدينا

التاسوع الاصغر أو الثاني

فمن بين هذه الآلهة كما روى العالم « مسبرو » الآله حوريس معبود ادفو . وقد طعن بحربته عجول البحر والأفاعى التى تتعرض فى المياه السماوية وتكدر صفو اله الشمس أثناء سياحته في سفينة؛ ثم « تحوت » اله الحكمة الذى يقود السفينة في سياحتها باغانيه السحرية، ثم « وِبْوَات » معبود اسيوط المحلى الذى كان يحرك سكان السفينة وعند الحاجة يجرها بالامراس فى الماء الضحضاح

وكان لهذين التاسوعين ثالث مكمل لهما، ويتألف من أولاد حوريس الاربعة ، وأولاد « خنتى خانى » معبود اتريبس (بنها)

ويطلق على الكائنات التى يتألف منهـا التاسوع الثالث في المتون الدينية « ملائكة » عادة وأحيانا تعتبر آلهة. والظاهر أنها لم تكن آلهة بالمعنى الحقيقى بل كان لها منزلة وسطى بين الالهة والبشر . أما عن مدلولات أسماء هذا التاسوع فلا نعلم شيئاً باليقين

التاسوع الثالث

وقد أخذ عن كهنة عين شمس بعض المعاهد الدينية الأخرى مذهب

خلق العالم وتاريخ مصر الفطرى الممثلين فى تاسوع « أون » وجعلوه ملائماً لأحوال بيئتهم، بأن وضعت كل جهة الهها المحلى موضع « أتمْ » معبود « آون »، أى على رأس التاسوع ليكون لهُ المكانة الأولى، ويمجد على انهُ خالق السموات والأرض. من أجل ذلك نرى لكل من فتاح معبود منف، ومن بعده آمون معبود طيبه المكانة الأولى فى جهته بين الالهة الأولين. ولم يكن بالأمر الصعب على كهنة المعاهد الدينية التى تقول بعبادة الهة انثى، أن يحلوا الالهة محل « اتم — رع — حوريس ». فمثلاً نرى « نَيْت » معبودة سايس (صا الحجر) و «حاتحور» معبودة دندره، رفعت كل منهما الى مرتبة المعبود الأعظم

المعاهد الاخرى تقلد معهد عين شمس

وكان هناك بطبيعة الحال مذاهب أخرى فى خلق العالم غير مذهب هليو بوليس، غير انهُ لم يحفظ من بينها مكانته فى علم اللاهوت المصرى، ولم ينل شهرة يمكن موازنتها بتاسوع هليو بوليس الأكبر، سوى مذهب واحد هو مذهب « هرموبوليس » (الأشمونين) احدى مدن الصعيد التى اتخذت تحوت اله الحكمة معبودها المحلى. وكانت طائفة المعبودات التى خلق منها العالم على حسب هذا المذهب تتألف من ثمانية

مذهب الاشمونين فى خلق العالم

وانما جعلت ثمانية على ما يظهر، لأن الاسم المصرى لمدينة هرموبوليس « خمنو » (ومنهُ اتت الأشمونين الحاليـة) معناه ثمانية : وهذه الحادثة البسيطة كافية وحدها للدلالة على ان هذه الالهة الثمانية التى نشأ منها العالم لا يرجع علة وجودها الى الخرافات الشائعة، بل الى فروض رجال الدين ومبتدعاتهم:

ونجد في هذا المذهب أيضاً أربعة آلهة وأربع الهات بُدعن خاصة ليكن أزواجاً للآلهة. وهاك اسماء الإلهة : « نو » و « هيهو » و « كك »

و « نونو » أما الالهات فهى « نوت » و « هيهوت » و « كيكيت » و « نُونِتْ » . وعلى رأس هذه الالهة « تحوت » (هرمس) معبود الأشمونين المحلى. وقد مثلت الآلهة في هيئة رجال لهم رءوس ضفادع . أما الآلهات فمثلن على شكل نساء لهن رءوس ثعابين. وكذلك كانت تظهر جميعها في صورة رئيسها « تحوت » فتبدو فى هيئة قردة . وكثيراً ما نشاهدها على هذا الشكل تحيي بألحانها الشمس المشرقة . بيد أنه مما يؤسف له أنها ليس لدينا معلومات مدلول هذه الأربعـة الأزواج من الآلهة . وقد رأى العالم لبسيوس أنها تمثل رمزاً الى العناصر الأربعة الماء والنار والأرض والهواء . وفسر العالم بركش « نو » و « نوت » بالمادة الأولى . و«هك» و «هكت» بالقوة الفعالة و«كاك» و«كيكت» بالظلام و«نونو» و«نوت» بأصل خلق العالم. على أن كل هذه التفسيرات لا تخرج عن حد التخمين المنطوى على الجرأة ، والذى لا يكاد يدل على شيء مما كان يرمى اليه كهنة هليوبوليس الأقدمون

ولا يغرب عن الذهن أن العقائد الدينية فى الشكل الذى أوصلتهُ اليه ابحاث كهنة عين شمس وهرموبوليس وغيرها من المراكز الدينية، لم تصر يوماً ما من معتقدات الشعب بل كانت على العكس تحجب عن دهماء القوم بحجاب من التكتم وينظر اليها كأنها أسرار مكتومة لا يصل الى حقيقتها الآ الأخيار. فكان الفلاح المصرى لا يعرف شيئاً عن اله الشمس الأصلى الذى كانت آلهة الشمس الأخرى أسماء خاصة له ، ولم يكن يعبأ بالتاسوع الاكبر أو التاسوع الأصغر ، ولا بتلك الموجودات الغامضة التى تتألف منها، بل كان همه فى أداء الصلاة للشمس صباحاً ومساء ، وتقديم ما عنده من قربان للاله الذى يحمي ذماره ، كما كان يفعل أجداده من قبل

أما الكهنة فكانت العقيدة الخاصة باله الشمس تزداد رواجاً بينهم على مر الأيام . والظاهر أن هذا المذهب قد نال فى الأزمنة التاريخية تشجيعاً خاصاً من ملوك الأسرة الخامسة . وأصل ملوك هذه الأسرة (اذا أخذنا بما جاء فى أحد كتب القصص القديمة) من سلالة أحد كهنة اله الشمس . وكان يقطن مدينة « سخبو » بالوجه البحرى على مقربة من عين شمس . وتقول القصة أن اله الشمس نفسه كان والد الثلاثة الملوك الأول من هذه الأسرة ، وأن الآلهة مدوا لهم المساعدة وقت ولادتهم ، وأهدوهم تيجان الملك . وقد عكف هؤلاء الملوك على خدمة الاله « رع » بحماسة شديدة ، فشيدوا له فى مقابر منف معابد خاصة على نسق معبد الشمس فى هليوبوليس

نسبة ملوك الأسرة الخامسة لأله الشمس

وقد كان من جراء تفضيل عبادة اله الشمس واجلاله أكثر من غيره، أن أخذ القوم يمثلون الآلهة الأخرى به ويقولون أنها هو . وقد غالوا في الامر حتى نسبوا ذلك الى الالهة التى لم يكن لها فى الأصل علاقة ما بالشمس كَسُبْك اله الماء ، و « امون » اله الحصاد ، وصوروا كلاً منها باضافة رمز « رع » له ، وهو قرص الشمس يحيط به ثعبان فاتك (الصل) . كذلك أنثيات المعبودات كانت تعتبر الهات السماء ، كل منهن تمثل في الأخرى ويصورن حاملات قرص الشمس فوق رءوسهن

الالهة المصرية تتمثل بالاله رع

دخلت الديانة المصرية ، فى طور جديد من أطوار نموها وتقدمها فى خلال حكم « الدولة الوسطى » ؛ وذلك حينما انتقل مركز البلاد السياسى الى الجنوب . وعلة ذلك أنه فى خلال الفتن الداخلية التى قضت على الدولة القديمة كانت مدينة طيبة قد أصبحت ذات قوة وشهرة ؛ فكان لأمرائها الفضل فى ارجاع النظام الى نصابه ، والسير بالبلاد ثانية فى طريق الرقى والنجاح ،

تطور الديانة فى عهد الدولة الوسطى

وبالرغم من أن ملوك الأسرة الثانية عشرة نقلوا مقر حكمهم الى جهة الفيوم ، فان المدينة التى نشأوا فيها كانت لا تزال مطمح أنظارهم وموضع عنايتهم . لذلك اعتبر امون معبود طيبة المحلى الهَ الشمس (أعظم المعبودات المصرية) وصار اسمه « امون رع » ، وأصبحت منزلته فوق كل الالهة ، وأُقيمت له المعابد الجديدة ، وقدمت له الهدايا النفيسة . ثم صارت طيبة فيما بعد مركزاً للمعركة التى قامت بين المصريين وغزاة الهكسوس . فلما وضعت الحرب أوزارها أصبحت طيبة مرة أخرى حاضرة للدولة الحديثة ؛ وعندئذ أصبح امون رع صاحب المكانة الأولى بين جميع الالهة المصرية . فكانت فراعنة مصر تقود الجيوش المظفرة الى الفرات شمالاً ويتوغلون بها فى السودان جنوباً تحت حماية هذا الاله . وكان الجزء الأعظم من الغنيمة التى تحملها هذه الجيوش من الأراضى المغلوبة يحبس على « امون رع » اله حاضرة البلاد ؛ اذ كان هو الذى يمنح فرعون « ابنه المولود من ظهره ، ورمزه فى الأرض » السيادة على العالم ، ولذلك كان له الحق هو وكهنته أن ينالوا جزاءهم الحق من هذه الغنائم

أمون رع أعظم الآلهة المصرية

ومما سبق يتضح أن امون أصبح معبود مصر القومى فى عهد الدولة الحديثة ؛ فلم يكن لغيره من الالهة المصرية مكانة عظيمة فى الديانة الرسمية اللهم الاّ « رع حوريس » اله مدينة عين شمس ، وفتاح اله مدينة منف حاضرة الدوله القديمة . لذلك كانت تقام المعابد فى البلاد المقهورة للاله امون أولاً ثم لرع حوريس ثانياً ، ثم لفتاح ثالثاً . وهذه الآلهة كان يعبدها أهل البلاد المقهورة على أنها الحامية للدولة المصرية

المعبودان رع حوريس وفتاح يليان امون فى المنزلة .

وفى الوقت عينه كان علماء اللاهوت الذين ينزعون الى طريقة التوفيق بين الآلهة المختلفة وادماجهم فى اله واحد يدأبون على تحقيق غرضهم ، فاذا

كانت الفروق بسيطة بين أوصاف الآلهة المحلية وشكلها جرت العادة أن تدمج هذه الالهة بعضها ببعض وتفسر بأنها مظاهر مختلفة لاله واحد. مثال ذلك أن الاله «امون رع» العظيم نشأت له مظاهر فى آلهة أخرى كالاله «من» معبود قفط المحلى، و«خنم» معبود الفنتين (اسوان)، وكذلك نشأ للمعبودة «بستت» الهة «بوبسطة» مظاهر فى الالهة «سخمت» والمعبودة «بخت» (الهة بنى حسن)؛ وكلها كانت تظهر فى صورة لبؤة أو قطة. على أن هاتيك الالهات جميعها كن مظهراً من مظاهر الالهة «موت» أم الآلهة وزوج «امون رع» اله طيبة

طريقة التوفيق بين الالهة بادماجها فى بعضها

ومن البدهى أنه بهذه الطريقة ازداد الغموض والتعقيد اللذان كانا يعوقان تفهم آلهة قدماء المصريين. حقاً أنه لم يكن بالأمر العسير على عقل أريب فى تلك الأيام أن يزيل آثار الارتباك من تلك المعتقدات والأساطير التى نشأت فى عصور مختلفة وأماكن متباينة. فما كان عليه الا أن يتأمل فى المجهودات التى كانت تبذل وقتئذٍ لادماج الآلهة المحلية المختلفة بعضها ببعض وجعلها آلهة تمثل الشمس أو السماء، فيجد فى ذلك دلالة كافية على أن القوم انصرفوا عن عبادة الآلهة الأولى المحلية ولم يعد هنالك مبرر لعبادة شىء الا طائفة صغيرة من الآلهة، أو عبادة إله واحد

ذلك يزيد الموضوع تعقيداً

ولكن لعمرى أين ذلك الرجل الذى كان يكنّ بين جوانحه الشجاعة الكافية، لابراز هذه النظرية الأخيرة من حيز الفكر الى حيز العمل، فيضرب بالمعبودات القديمة عرض الحائط ويحل محلها إلهاً واحداً جديداً؟ أليس من الطبعى اذا قام هذا المصلح بمثل ذلك الانقلاب أن يقوم فى وجهه كهنة المعابد الدينية فى جميع البلاد من أقصاها الى أقصاها محاربين هذا التفسير

ومدافعين عن ميزات آلهتهم ومناقبهم الخاصة ؟ بل ماذا يكون جواب كهنة طيبة سَدَنَةُ « امون رع » ، حينما يرون الههم يخلع أمام أعينهم من عرشه ، وهم الذين كانوا يقيمون الحفلات ويولمون الولائم والفخر ملء صدورهم تمجيداً لقوته وعظمته وجبروته ؟ ألا يعارضون بكل ما لديهم من حول وقوة فى ادخال إله آخر أعظم من إلههم امون ؟ ثم ماذا يكون رأى دهماء القوم الذين شبوا على احترام آلهتهم القديمة ولم يشغلوا عقولهم بالمذاهب الدينية ؟ وكيف يسوغون لأنفسهم أن يقتنعوا بأن سلطة آلهتهم الأقدمين أصبحت فى خبر كان ؛ وان إلهاً جديداً حل محلها تجب عبادته واقامة الصلوات وتقديم القرابين له بأمر من السلطة الحاكمة ؟ على أن يوم هذه المخاطرة الجريئة لم يكن ببعيد ؛ يوم يُقضَى على الآلهة الأقدمين وتبدل عبادتهم بعبادة إله واحد فى السماء والأرض

ماذا يحدث لوقام فرد بنشر عبادة اله واحد

وكانت عوامل الحقد ، والغيرة ، والبغضاء تحتدم نيرانها فى نفوس كهنة عين شمس ، اذ رأوا أن المعبود امون رع قد علت مكانته حتى أصبح إله الدولة العام ؛ وان كهنته أصبح فى أيديهم قوة كبيرة بفضل ما كان يفيض عليهم الملوك من الخيرات العظيمة بكرم حاتمى . فقد كانت كهنة « عين شمس » يدّعون ان إله الشمس « رع حوريس » هو المسيطر على العالم أجمع فى حين أن امون ليس بأعظم شأناً من « فتاح » إله منف المحلى ، أو سبك معبود الفيوم ، وأنه اذا قرن برع حوريس يكون مثله كأمير القطيعة والملك . بيد أن امون أظهر من آيات الجميل والانعام على فرعون ما جعله لا يأبه بأقوال أتباع « رع حوريس » التى كانت تنم عن الغيرة وترمى الى جعل إلههم صاحب المكانة الأولى فى الدولة المصرية . على أنه بمرور الزمان سنحت

المنافسة بين كهنة عين شمس وبين كهنة امون

الفرص لكهنة « هليوبوليس » لنيل أمنيتهم والوصول الى مرغوبهم

وذلك ان الملك امنحتب الثالث لما لفظ الحياة عام ١٣٩٢ ق . م خلفه ابنه امنحتب الرابع على اريكة مصر . والظاهر أنه تربى تربيته الأولى بين كهنة عين شمس وسواء أكان ذلك حقيقة أم لم يكن ، فقد كان هواه مع مذهب كهنة هذه المدينة القائل بأن إله الشمس أعظم الآلهة ، وأنه لذلك أحق بأن تسود عبادته فى جميع العالم ، وأن تُهدى اليه أحسن خيرات الدنيا وأثمنها

سنوح الفرصة لكهنة عين شمس بتولى امنحتب العرش

وقد أفلح كهنة عين شمس فى استمالة الملك الى جانبهم ووجدوا فيه العضد الأكبر لاثبات دعواهم وتحقيق غايتهم . وفى هذه الآونة نمت عقيدة سرّية خاصة بين علماء اللاهوت فى عين شمس تقول بأن أنق شكل يظهر فيه إله الشمس ليس هو « رع » بل مظهره الوحيد وهو قرص الشمس . ووضعوا لهذا المظهر اسماً خاصاً وهو « رع حوريس » الذى يصيح من الفرح على الأفق ويبتهج باسمه «النور الذى فى كرة الشمس » . على اننا لا نعلم معنى هذا اللقب الغريب ، ولا نعرف شيئاً عن التعاليم التى كانت تلقنها أتباع هذا الإله . والظاهر أن امنحتب اعتنق هذا المذهب بحماس وشغف اذ أنه لم يقتصر على الانضمام الى حلقة أتباعه ، بل صار أيضاً رئيس رسله

عقيدة كهنة عين شمس السرية

ولم يكد امنحتب الرابع يجلس على عرش مصر حتى أخـذ يسعى فى نشر عبادة هذا الإله الجديد فى أنحاء البلاد . فأعلن جهاراً أنه رئيس رسل هذا الإله العظيم ، وأمر بتشييد معبد فخم له فى مدينة طيبة ملاصق لمعبد امون . وقد ظهر هذا الإله الجديد على النقوش البارزة التى زينت جدران هذا المعبد على شكل المعبود القديم « رع حوريس » ، أى فى هيئة انسان له

امنحتب ينشر المذهب الجديد

رأس باز ويتوج هذا الرأس قرصُ الشمس يحيط به صل . وقد أقيمت فى منف وغيرها من البلدان المعابد لهذا المعبود وتعددت أسماؤه فعُرف « برع حوريس ، وقرص الشمس » و « آتون » (ومعناه باللغة المصرية قرص الشمس)

اختاتون المكان المقدس للمعبود الجديد

وقد خصص الملك لهذا الإله جهة مقدسة وُقفت عليه تعرف باسم « اخِتاتون » أى أفق قرص الشمس . وهذا المكان يسمى الآن تل بنى عمران (بالقرب من ملوى) نسبة الى قبيلة البدو التى استوطنته

وحذا حذو الملك فى اعتناق المذهب الجديد اصدقاؤه ووليجته ورجال دولته وان لم يعتقدوا فيه من قلوبهم . ورغم ما كان عليه امنحتب من التحمس لإلهِ الجديد أباح فى بادئ الأمر عبادة امون وغيره من المعبودات المحلية ، بل لم يحجم عن الظهور فى النقوش والصور وهو يعبد امون وتحوت وست وغيرها من الآلهة . ولا غرابة اذا علمنا أنه رغم كل المجهودات التى بذلها الملك فى نشر دعوته ، كانت تقاومها كهنة المعابد الدينية وبخاصة كهنة طيبة أتباع امون ؛ غير أن هذه المقاومة لم تفت فى عضد فرعون لدرجة تجعله يحجم عن ادخال عبادة الهه ، بل أورث بالعكس نار تعصبه لمعبوده لدرجة عظيمة ، وساقتهُ أخيراً لاتخاذ خطوة حاسمة

الملك يعبد الآلهة الأخرى ايضاً

فى السنة السادسة من سني حكمه جعلت عبادة آتون الدين الرسمى للبلاد ، ومن وقتئذ طلب رسمياً الى المصريين والنوبيين والاسيويين الخاضعين للدولة المصرية أن يعبدوا هذا الإله الفرد الأحد دون سواه . وقد أمر الملك باغلاق معابد كل الآلهة الأخر ، وتحطيم تماثيلها ، ومحو صورها ، وطمس اسمائها على جدران المعابد . وقد ظهر هذا الاضطهاد بشكل مريع ، وبخاصة ضد المعبود امون وأسرته (الآلهة موت واله القمر خنس) . فصودر اسم امون جملة ،

محو جميع المعبودات وعبادة الإله الواحد

ولم يسمح بذكره فى أى مكان ، حتى أن كل فرد دخل فى تركيب اسمه امون كان لزاماً عليه أن يسمى نفسه من جديد . وأول من فعل ذلك الملك نفسه فأنه تبرأ من اسمه امنيحتب (امون راض) ، وسمى نفسه من جديد باسم اخناتون ومعناه (روح ضوء الشمس)*

الملك يغير اسمه المشتمل على كلمة امون

حقاً تغلغل الملك فى الاعتقاد بدينه الجديد بحماسة واخلاص لم يسبق لها مثيل ، ولقد رأى أن طيبة حاضرة ملكه لم تكن بالمكان الملائم لخدمة إلهه بحمية صادقة ، اذ كان كل شيء فى هذا البلد مرتبطاً بعبادة امون تمام الارتباط من قديم الزمان ؛ ولم يخط فيه المذهب الجديد خطوات واسعة رغم كل ما بذل من المجهودات في نشره . من أجل ذلك عقد فرعون النية على هجر طيبة مستصحباً كل وليجته، فولى وجهه شطر تل بنى عمران ليؤسس فيها حاضرة جديدة. وقد كان من قبلُ حبس هذا المكان على الاله « آتون » . ثم دخل فى السنة السادسة من حكمه بابهة وعظمة حاضرته الجديدة « افق قرص الشمس » (أَخِتَاتُونْ)

نقل الحاضرة الى اختاتون

---

* جاء فى كتاب الأستاذ « بِرِسْتِدْ » تدرج الديانة والأفكار فى مصر القديمة صفحتى ٣٢١ و ٣٢٢ « وقد غير الملك اسمه من أمنحُتب » (ومعناه امون يرتاح أو راض) الى اختاتون ومعناه (اتون راض) . وهذه ترجمة لاسم الملك القديم بفكرة تتناسب مع مذهب اتون

وقد كتب فى هامش الصفحة السابقة من الكتاب نفسه ما يأتى : —

أنظر مقال الأستاذ سيتى (Sethe) فى مجلة « سِيتْشْرِفْتْ » جزء ٤٤ صفحة ١١٦ — ١١٨ حيث تجد البرهان على صحة الترجمة الجديدة لهذا الاسم . وتبعاً لذلك يجب اصلاح ترجمة هذا الاسم فى كتاب المؤلف (برستد) « تاريخ مصر القديم » صفحة ٣٦٤

قد تتساءل أيها القارئ عن موضوع هذا الدين الجديد الرسمي ، وعن العقيدة التي كرس الملك نفسه لخدمتها بهذه الحمية ، والتي بذل أقصى جهده لنشرها في أنحاء بلاده من أقصاها الى أقصاها . فالجواب على هذا السؤال واضح جلي فى التسبيحة الشهيرة التي ربما كانت من نسج فرعون نفسه؛ اذ فيها يُسبِّح لآتون بصفته الاله الواحد خالق كل الحياة ومنظم العالم وحافظ الكون ومطلعها :

موضوع الدين الجديد يظهر فى تسبيحة الأتون

« جميل نورك على أفق السماء، أنت يا من هو الشمس الحية التي وجدت قبل كل شيء . حينما تشرق على الأفق الشرقى تملأ كل الأرض بجمالك . أنت جميل وعظيم وساطع ومشرق على كل الأرض . أشعتك تكتنف كل العالم وكل ما هو من صنعك »

ثم يأتى بعد ذلك كيف أن الناس حينما تختفى الشمس ليلاً وتنزل تحت الأفق الغربى ، يغشاهم النعاس ، وأن الحيوان المفترس عدو الإنسان كالسباع، والحشرات المؤذية كالثعابين تخرج من مخابئها . ولكن شتان بين ذلك وبين الحال «حينما تكون الأرض مضيئة ، عند ما تشرق أنت على الأفق وترسل أشعتك فعندئذ يشمل السرور العالم » ويستيقظ الناس ويقفون على أرجلهم، لأنك أيقظتهم فيغسلون أبدانهم ويرتدون ملابسهم ويرفعون أيديهم تضرعاً وابتهالاً حينما تشرق . ووقتئذ تكون كل الحيوانات آمنة مطمئنة فى مراعيها وتخضر الأشجار والأعشاب وتطير العصافير من أوكارها وأجنحتها تثنى عليكِ . وتمرح الأغنام فى مراعيها وكذلك تحيي كل الحشرات والطيور حينما تسطع بأشعتك عليها »

كذلك تبعث الشمس الحياة فى البحار « فتسبح الفلك فيها جيئة

ورواحاً شمالاً وجنوباً ، وتسبح الأسماك امامك فى النهر ، وتخترق أشعتك حجب البحر »

كذلك كل بنى الانسان والحيوان من خلق الشمس . « فهى تسوى الجنين فى بطن أمه، وعند ما يظهر الطفل للعالم يوم ولادته تفتح فاه ليتكلم». وآتون أيضاً « هو الذى ينفث ريح الحياة فى الفرخ حينما يخرج من قشر البيضة . . . . . ما اكثر الأشياء التى برأتها ، فبأرادتك خلقتَ الأرض والانسان والحيوان وكل المخلوقات الصغيرة ، وكل ما يمشى على رجليه ، أو يطير بجناحيه . وكذلك خلقت أرض سوريا وبلاد اتيوبيا فضلاً عن أرض مصر . أنت تضع كل شىء فى مكانه ، وأنت تسد حاجته . الناس ألسنتهم مختلفة وألوانهم متباينة . هكذا قسمت كل العالم »

ولما كان آتون خالق الناس، كان هو الذى يطعمهم : الأجانب منهم من ماء السحاب ، والمصريون من النيل « النيل السماوى » . وفى الختام يسبح للإله لأنه « أوجد فصول السنة : فخلق برد الشتاء وحرارة الصيف : انت ذرأت السموات العلى لتنير فيها وتبصر من علاك كل ما خلقت . أنت الإله الأحد . أنت تضىء في مظهرك على شكل قرص الشمس الحى . أنت تشرق وترسل أشعتك : فالمدن والقرى وقبائل البدو والأنهار وكل الأبصار تنظر اليك حينما تشرف على الأرض

حقاً أن هذه التسبيحة لمن أجمل التسابيح التى وصلت الينا من الأدب المصرى ، غير أنها لا تشتمل على أفكار مبتكرة، اذ كل ما جاء فيها يحتمل وجوده فى تسبيحة للشمس من نسج أتباع المذهب القديم قبل قيام هذا الاصلاح الدينى . على أن العقيدة الهامة فى هذا الدين الجديد هى أن

آتون هو الخالق والمنظم والحاكم للعالم أجمع لا مصر وحدها . فكأنه ملك العالَمين . وهذه الصفة قد عبر عنها أتباعه فى شكل ساذج فوضعوا اسم الاله فى خاتم (خرطوش) كما توضع أسماء ملوك الدنيا وأضافوا الى ذلك بعض الألقاب مثل « كرة الشمس الحية » أو « رب كل ما تحيطه كرة الشمس » و « الذى يضئ مصر » و « رب أشعة الشمس »

المذهب الجديد يرمى الى التوحيد

ولا مشاحة فى أن هذا المذهب كان يرمي الى القضاء على فكرة تعدد الالهة قضاءً مبرماً والاستعاضة منها بمذهب توحيد ظاهر لا يشوبه شىء سوى أنه مادى . ولكن للأسف كان ما يصلحه الملك باليد اليمنى يفسده بيسراه ، اذ رفع نفسه الى مرتبة الالهة ، وأصبح يعبد فى جهات مختلفة ، ونُصِّبت الكهنة لاقامة عبادته ، هذا الى أن المذهب الجديد دخل عليه تغيير فى عقائده حتى بعد اعتراف الحكومة بأنه دين البلاد الرسمى . وقد ظهر ذلك جلياً فى اختلاف أسماء أتون ؛ اذ أطلق عليه لقب أغرب مما سبق ذكره وهو « رع (الشمس) يعيش ، أمير الأفقين ، وهو الذى يبتهج على الأفق باسمه — اللهيب الذى ينبعث من الشمس »

محو التماثيل التى تمثل الاله

ومن النقط الهامة التى خالف فيها المذهب الجديد التقاليد القديمة ، الشكل الظاهرى الذى كان يمثل فيه الاله . وذلك أنه فى بادئ عهد الاصلاح الدينى ، أى فى خلال السنين الأول من حكم امنحتب الرابع ، كان يمثل المعبود أتون كما ذكرت آنفاً على شكل المعبود القديم رع حوريس ، ولكن لما أصبحت عبادة التوحيد هى العبادة الرسمية قضى على كل مظهر يمثل الاله على شكل انسان ، ومحى كل صورة أو تمثال يمثل الاله ، وأصبحت العبادة مقصورة على الشمس الظاهرة المضيئة ، وكانت تمثل اذ ذاك على صورة قرص

مستدير يرسل أشعة طويلة ينتهى كل منها بيد قابضة على علامة الحياة مانحة إياها الملك وأسرته بصفتهم الممثلين للانسانية

انتشار المذهب الجديد

والظاهر أنه لم تقم معارضة جديّة لادخال هـذا المذهب الجديد فى أى جهة من جهات القطر، اذ لم نسمع بقيام أى حركة ثورية تناهض الملك، بل أن السواد الأعظم من عمال الأقاليم خضعوا صاغرين لأوامر فرعون؛ ومن أظهر منهم أى معارضة كان نصيبه العزل من منصبه بل قد يكون جزاؤه القتل

توت عنخ اتون يضطر الى الرجوع الى المذهب القديم

على أن أمد هذا المذهب لم يدم طويلاً؛ اذ لم تكد توارى التراب جثة أخناتون، بعد أن جلس على عرش مصر ثمانية عشر عاماً، حتى هبت عاصفة على تلك النهضة الدينية التى صرف فيها هذا الملك طول حكمه، فقام أتباع المذهب القديم وعلى رأسهم كهنة طيبة، وبذلوا جهد طاقتهم فى السعى وراء إعادة الالهة الأقدمين، وفتح معابدهم ثانية للتعبد فيها واسترجاع ضياعهم وأملاكهم المغتصبة. وقد حاول صهر امنحتب وخلفه على العرش (لأن ذلك الملك الزائغ لم يترك ولداً يعقبه على عرش مصر) أن يقاوم الحركة التى قامت ضد الاصلاح، فكان نصيبه أن خلع عن عرشه سريعاً. وكان ذلك درساً شافياً لخلفه وحميه «توت عنخ أتون»، اذ رأى بثاقب رأيه أن مذهب أتون لا يمكن أن يبقى دين البلاد الرسمى، وأن الطريقة المثلى لحفظ عرشه وبقاء ملكه أن يصلح ما بين العرش وبين أتباع المذهب القديم. فأعاد حرية عبادة الالهة الاقدمين، وأعلن للملأ اعتناقه عبادة أمون ذلك الاله الذى كان منذ هنيهة مضطهداً أيما اضطهاد

وكما أن امنحتب قد غير اسمه لأنه يشمل كلمة امون المحرمة عنده

كذلك غير « توت عنخ اتون » اسمهُ الذى كان يشمل لفظة آتون المحرمة ، فأصبح اسمه من ذلك العهد « توت عنخ امون » (تمثال امون الحى) . ثم خضع لمقتضيات الأحوال، فهجر مقر ملكه فى تل العمارنة وانتقل بوليجته الى طيبة حاضرة البلاد القديمة . على ان الملك الذى محى مذهب امنحتب الرابع من البلاد جملة هو « حور امحب » خاف الخلف الثانى* لتوت عنخ آمون ؛ اذ أزال من عالم الوجود معبد اتون الذى كان لا يزال باقياً الى هذه اللحظة ، وقامت فى طول البـلاد وعرضها حملة شعواء على كل شىء يخلد ذكر عابد الشمس (اخناتون) أو اسرته أو الهه؛ فمحيت اسماؤهم وصورهم أينما عثر عليها

غير اسمه الى توت عنخ امون

حور امحب قضى على المذهب الجديد جملة

بذلك ظهر الدين القويم وانتصر انتصاراً مبيناً ، ولـكن الثمن كان غالياً ، اذ كان فى ذلك القضاء على تلك الحياة الدينيـة التى كان أحسن ثمارها تلك العقيدة الجديدة التى أخرجها ذكاء امنحتب الرابع . وبذلك وقف كل تقدم فى هذا المذهب الجديد

وعلى ذلك أصبح امون ثانياً صاحب المكانة الأولى التى لا ينازعه فيها منازع بين آلهة المصريين . واستمرّ كهنته على طريقتهم القديمة ، أى طريقة التوفيق والتأليف بين المذاهب المختلفة فأخذوا يشحذون قرائحهم ليظهروا امون بأنهُ « هو الواحد الأحد الذى لا ثانى له »

امون صاحب المكانة الاولى ثانية

وتتمثل ميول الـكهنة الرجعيين ومبتدعاتهم الدينية فى تسبيحة طويلة للمعبود امون وهأنذا أقتبس لكم منها نموذجاً أو نموذجين : —

الحمد لك يا امون رع، أنت أيها الثور الذى يسكن عين الشمس، يا اله

* وهو الملك آى والمعروف عنه من الآثار انه حكم أربعـة أعوام – راجع كتاب العالم جوتيه فى أسماء الملوك

الخورنق . . . . أنت أيها الواحد القديم فى السماء وأقدم (الالهة) فى الارض، يا رب القانون ووالد الآلهة، . . . . . . الذى خلق ما علا وانخفض (يحتمل أنهُ يعنى الأجرام السماوية وبنى الانسان)، والذى يفيض نوراً على العالم، والذى يقوم بسياحة موفقة فى السموات؛ أنت يا أيها الملك رع المبارك، أيها المسيطر على العالم، أنت يا غنيا فى قوّته وممتلئاً بطشاً، . . . . الحمد لك يا خالق الآلهة، يا رافع السموات، وباسط الأرض . . . . . . يا اله الكل الذى خلق الأبدية، . . . . . . يا أيها الملك الرفيق المتوّج بالتاج الأبيض، يا اله البهاء الذى خلق النور، يامن تسبح بحمده الآلهة، الحمد لك يارع يا اله الحق، يامن قدوسه لا يُرى، أنت يارب الآلهة، أنت «خبررع» فى سفينتك بأمرك تستيقظ الالهة، أنت «أتم» الذى ذرأ بنى الانسان، أنت الذى خلق كل شيء موجود، الناس برأت من عينيك، والآلهة من فيك. أنت الذى خلقت الأعشاب النضرة للأنعام، والأشجار التى تحمل الفاكهة للناس. أنت الذى ترزق الأسماك فى النهر، والطيور تحت السماء، وتمنح ريح الحياة للكائنة التى لا تزال فى برجها، وتنعش ابن الدودة، وتمنح الحياة للذباب، كما تمنحها للديدان والبراغيث، وترزق الفيران ما تحتاج اليهِ فى أجحارها . . . . الحمد لك يامن خلقت كل هذا. أنت أيها الملك يا صاحب السلطان الأعظم بين الالهة. نحن نعبدك لأنك خلقتنا ونسبح بحمدك لأنك صورتنا، ونشكرك ونقدسك لأنك تعيش بيننا»

تسبيحة للأله امون رع

ومما لا مراء فيه انك تلاحظ فى كل هذه العبارات نغمة ظاهرة واضحة تنطق بعقيدة التوحيد. بيد انها فى الحقيقة مجرد عاطفة، اذ الواقع ان القوم تمسكوا باهداب آلهتهم الأقدمين أكثر من قبل. فكان الاله امون

أعظم الالهة شأناً وبجانبه كان « رعحوريس » معبود عين شمس و « فتاح » معبود منفيس لا يزالان محافظين على مكانتهما العالية بين الالهــة المصرية، وكان يسبح بحمدهما فى تسابيح كالتى اقتبسنا منها ماتقدّم

والحقيقة انهُ لم يكن بين الالهة المصرية فضلاً عمن ذكرنا من حظى بمقام عظيم ومكانة سامية سوى الاله « ست » ، وذلك لمدة قصيرة فى عهد الرعامسة. كان هذا الاله فى بادئ الامر معبود « امبص » المحلى، ثم صار منذ العصور الاولى اله المملكة الجنوبية (الوجه القبلى) . ثم دخل فى طائفة «التاسوع الاكبر» لمدينة «عين شمس» ولعب دوراً هاماً فى قصة أزريس ؛ يضاف الى ذلك أن عبادته استقرّت فى شرق الدلتا وخاصة فى مدينتى «تنيس» و«اواريس» (القنطرة الحالية) وبذلك أصبح الاله الحامى لشرق مصر. ثم تخطى الحدود المصرية وصار الحامى لأملاك فرعون السورية . أما فى مدينة اواريس التى اتخذها الهكسوس حاضرة للبلاد بعد غزوهم مصر، فانهُ أصبح كذلك حامي هؤلاء البرابرة وعدوًّا للاله « رع حوريس » الذى كان يحمى المصريين ويقودهم فى ساحة الوغى ضد عدو الوطن. والواقع ان الاله ست صار عندهم الاله « بعل » حامى القبائل والمدن السورية، غير أنهُ رغم ذلك كان فى نظر القوم مصرى المنشأ، وبقى فى عداد الالهة المصرية ومكث يعبد فى مدنه القديمة . وقد اعتبره ملوك الاسرة التاسعة عشرة لأسباب لم نقف على كنهها بالضبط جدًّا لهم. وقد تسمى باسمه عدد وفير من ملوكهم مثل سيتى (ومعناه المنسوب الى الاله ست) وستنخت (ومعناه ست قوى) ولما نقل رمسيس الثانى مقرّ حكمه لمدة وجيزة الى مدينة تنيس على الحدود الشرقية، أخذت شهرة الاله ست معبود هذه المدينة تزداد كثيراً حتى أصبح

مكانة الاله ست

ست جد فراعنة الاسرة التاسعة عشرة

من أهم المعبودات ، وصار يضارع فى مكانته الالهة أمون ورعحوريس وفتاح، ولذلك أقيم له بدلاً من معبده القديم معبد جديد فخم لا تزال بقاياه العظيمة تشهد ببهائه الغابر

وفى عهد الدولة الحديثة ، حينما كانت البلاد المصرية على اتصال كبير بغربى أسيا ، دخل البلاد طائفة كبيرة من الالهة الأجنبية وقد وجدوا صدراً رحباً ومكاناً سهلاً من الأجانب الذين كانوا يقطنون مصر اذ ذاك بل من المصريين أنفسهم أيضاً . ويشاهد ذلك خاصة فى الاله « بعل» (Baalim) الذى اعتبر أنه هو ست، وعُبد فى شكل الحيوان الهائل الذى يمثل ذلك المعبود، ثم الالهة « أستارت » التى كانت كالالهة بابليون تمثل فى هيئة امرأة عارية واقفة على أسد (حيوانها المقدس) أو على شكل امرأة برأس لبؤة على الطراز المصرى ؛ ثم نجد كذلك اله الحرب « رشب » لابسا خوذة الحرب وفى يده حربه ، والالهة قادش التى كانت تلقب بمناقب الإلهة حاتحور المصرية مثل «سيدة السماء» و « المسيطرة على كل الالهة» و«عين اله الشمس» و « بنت رع ومحبوبة اله الشمس » . كذلك حازت « أنات » (الهة الحرب عند السوريين) مكانة فى المعابد المصرية، ونالت شهرة عظيمة فى عهد رمسيس الثانى حتى أنه سمى باسمها أحب بناته اليه « بنت آنات »

دخول معبودات اجنبية فى الديانة المصرية

بيد أنه فى خلال ألف العام الأولى قبل المسيح، عندما أخذت عرا المودة بين مصر وسوريا وفلسطين فى الانحلال تدريجاً، تدهورت عبادة الاله ست لأنه كان ولىّ الاسويين ، وابتدأ المصريون يعتبرونه حامى أعدائهم فحسب . ولم يقتصر الامر على ذلك بل أخذت الكهنة تصوّر بشكل بارز الدور المعزو اليه فى قصة أزريس ، واصبح يعتبر فى نظرهم تدريجاً أساس كل شر ؛ فأنه هو الذى

تدهور عبادة ست

ذبح أزريس واشتبك فى نضال عنيف مع حوريس المنتقم لأبيه. ومن ثم أصبح خصم اله الشمس ، وممثل الظلام ، ورب القحط والصحراء ، والمهلك لكل شيء حى . وكذلك صار عدواً لكل خير وشيطانا بين الالهة المصرية ، ثم انتهى الأمر بإخراجه من بين المعبودات المصرية، فبطلت عبادته ومحى اسمه وصورته أنّى وجدا . ولما وقف الاغريق الأقدمون على قصته قرنوه باله الشر عندهم « تيفون » العدو الخرافى « لزوس » فانقضت على الأول صاعقة بعد شجار عنيف وسقط فى « ترتاروس . (Tartarus) *

ست مصدر كل شر

وقد كان إبعاد ست من بين المعبودات المصرية آخر مظهر من مظاهر التحمس عند قدماء المصريين للمحافظة على دياناتهم التى كانت وقتئذ فى النزع الأخير؛ اذ بانحطاط شأن طيبة حاضرة البلاد تدريجاً بعد طرد ملوك النوبة أخذت شهرة امون تتلاشى باستمرار. ثم انتقل مقر الملك الى الشمال وتحول معه كذلك محور سياسة البلاد ، فنتج عن ذلك أن الهة الدلتا المحلية ، أمثال المعبودة « نيت» الهة صا الحجر و«باستت» (القطة) معبودة بوبسطه والمعبود « أنوبيس » ، وبخاصة الاله أزريس وأسرته ، والمعبود « حوربوخراد » (حور الطفل) ، كل هؤلاء أخذت تعظم مكانتهم ويكبر شأنهم باستمرار

المعبودات المحلية فى الدلتا يعظم شأنها

وبدخول المدنية الإغريقية البلاد دخلت معها عبادة « الأبطال » . وذلك أن الحكماء الاقدمين الذين كان يحج المصريون قبورهم من أقدم العصور ويحترمونهم ويعظمونهم كما يعظم المصريون الاولياء فى عصرنا هذا ، دخلوا فى العصر الاغريقى بين زمرة الالهة المصرية . فمن بين هؤلاء نخص بالذكر « امنوتس بن حابو » المهندس المعمارى البارع فى عهد امنحتب الثالث ،

عبادة الابطال

* العالم السفلي وبخاصة المكان الذى يعاقب فيه الأشرار

أصبح يعتبر نصف اله، وصار يعبد فى معابد عدة فى طيبة الغربية ؛ وكذلك « إمحوتب » المقدس فانه أصبح فى مصاف الالهـة ؛ وهو من مشاهير المهندسين المماريين المعاصرين للملك زوسر « الأسرة الثالثة » . وقد ساد الاعتقاد أنه كان صاحب حكمة وعرفان ، ولا سيما فى فن الطب الذى برز فيه . وكان قبره الواقع على مقربة من هرم مَليكه (هرم سقارة المدرج) قبلة الذين يطلبون الشفاء من أوجاعهم ؛ فشُيد له فى هذا العهد الجديد معبد فى هذه الجهة أقيمت فيه الشعائر الدينية احتراماً وتبجيلاً له ، فلم يعُد امحوتب كأحد الموتى الذين تُقدَّم لهم القرابين، بل أصبح الهاً ، وقرر الكهنة انه ابن الاله فتاح . وقد اعتبره الاغريق الههم « اسكلبيوس » اله العلاج لتشابه صفاتهما . وقد سرت عبادة إمحوتب من منف الى سائر أنحاء البلاد . وبلغ من شدة احترام القوم له ان أقام لهُ « بطليموس فلدلف » معبداً فى جزيرة الفيلة المتاخمة لحدود النوبة

امحوتب فى مصاف الالهة

بيد أن كل الالهـة المصرية تلاشت حينما أدخل بطليموس الأول فى وادى النيل الههُ الجديد « سِرَبيس » باحتفال مهيب . وسبب ادخال هذا الاله فى البلاد المصرية على ما روى أن « بطليموس سوتر » رأى في منامه أن ينقل الاله الأعظم « زوس هيدز » (Zeus Hades) من ميناء سينوب على البحر الاسود الى مصر . فحقق بطليموس هذه الرؤيا ونقل الاله المذكور الى الاسكندرية فى موكب حافل حضره عـدد عظيم من علماء اللاهوت من الأغريق . والمصريين من بينهم منيتون المؤرخ المصرى القديم . وقد اعترف بهِ القوم وعرف بالاله « سربيس » . بيد أنهُ لم يقف احد الى الآن على كنه هذا المعبود . وغاية ما يمكن استنباطه أن بطليموس قد بلغ بعمله هذا أمنيته

سربيس الاله الجديد

فقد صير المعبود الجديد الهاً للعالم الاغريقى المصرى، تحنى امامهُ كل رعاياه على السواء الرءوس اجلالاً واحتراماً . وفعلاً رأى فيه الاغريق اكبر آلهة العالم اذ كان يمثل فى شخصه « زوس » اله السماء و « هليوس » اله الشمس و « هيوز » اله العالم السفلى . ورأى فيه المصريون من طريق تشابه الاسماء علاقةً بالعجل أبيس اله الموتى ومعبود مدينة منف (الذي كان يسمى بعد مماته ازريس ابيس) . فاعتقدوا ان الاله الجديد «سر بيس» هو «ازريس ابيس» الههم القديم

وقد راجت عبادة سرَبيس فى مصر بسرعة مدهشة . ويلوح أن سكان وادى النيل من أغريق ومصريين كانوا قد يئسوا من عودة مجد الهتهم الأقدمين ، وأصبحوا يتطلعون الى قوة سماوية جديدة ، وبذلك صار سر بيس اله مصر عامة فى عصر الاغريق والرومان. بيد أنه لم يكن في استطاعة هذا المعبود أيضاً أن يبعث حياة دينية جديدة فى نفوس أهل مصر . والحقيقة أن الزرع وقتئذٍ كان قد نضج للمنجل ، اذ على أثر تخريب معبد « سر بيس » بالاسكندرية فى عهد تيودور الأكبر أول امبراطور مسيحى ، حطم تمثال هذا المعبود الأكبر بضربة من معول جندى ؛ وعندئذٍ ضربت الوثنية المصرية الضربة القاضية . وبزوال « سر بيس » تمزق شمل الديانة المصرية ولم تقم لها قائمة بعد

القضاء على الوثنية المصرية

المحاضرة الثالثة

المعابد والاحتفالات

« المصريون قوم يخافون الله اكثر من أى شعب آخر » . هذا هو حكم هيرودوت على سكان وادى النيل من الناحية الدينيـة فى القرن الخامس قبل الميلاد . ولا مشاحة فى أن حكمه عليهم فى هـذا العصر المتأخر كان ينطبق عليهم فى عصور تاريخهم الأولى . والواقع ان العاطفة الدينية كانت متقدة عند المصرى فى كل عصوره ؛ فكان همه دائماً أن يحقق ارادة الهه، فيقوم له بما عليه من الفروض الدينية ولا يرتكب أى اثم فى حرم معبده . وكان يخصص فى كل بيت مصرى حجرة تشتمل على مقصورة صغيرة فيها تمثال الاله أو صورته ، حيث كان أفراد الاسرة يؤدون فروض العبادة ويقربون القربان . وكان ينصب فى الطرقات أحيانا معابد صغيرة، وتمد فى الحقول موائد القربان ليضع عليها الفلاحون قرابينهم

مقدار تدين المصريين

ومن المحتمل أن مصر من هذه الوجهة كانت شبيهة بمملكة كاثوليكية بأوربا الحديثة ، حيث يصادف الانسان فى كل خطوة من خطواته تماثيل القديسين ومعابدهم . حقاً ان المراكز الدينية القليلة الأهمية لم يصل الينا من آثارها الا النزر اليسير ، والمعابد العظيمة لاتزال خرائبها الضخمة تنبئ عن عظمتها ورونقها السالفين .

وليس لدينا من الآثار ما يدلنا على شكل المعابد المصرية قبل الأسرات الا الصور والنقوش الهيرغليفية الصغيرة . ومن هذه نعلم أن المعبد كان عبارة

المعابد المصرية قبل الاسرات

عن كوخ صغير (حجرة صغيرة) مقام من الخشب أو خص من القصب ، وأمام هذا الكوخ كان ينصب عمودان ، وعلى وجهة بابه لوحان مائلان من الخشب الرونق . وكانت البقعة المقدسة فى المعبد تحاط بسياج حتى لايدخلها الاّ من كان عنده جواز بذلك

ارتقاء المعابد المصرية

وبابتداء عصر الدولة القديمة كان شكل المعبد المصرى قد درج نحو الرقى بدرجة محسوسة تميزه عما كان عليه فى عهده الفطرى ، فأصبح يشاد من اللبن ومن مواد أخرى أشد صلابة كالحجر الجيرى بل الجرانيت أيضاً . وكان يزين داخله بالعمد وتحلى جدرانه بالنقوش البارزة . ولا بدَّ أن نعترف هنا اننا لم نقف الى الآن الاّ على نوع واحد من المعابد التى كانت تقام فى هذا العهد . وهذا النوع يختلف اختلافاً بيناً عن النوع العادى فى ترتيبه* . واقصد بذلك معابد الشمس المشهورة التى كانت تشيدها فراعنة الاسرة الخامسة فى مدافن « بوصير » الواقعة على بعد عشرة اميال من جنوبى أهرام الجيزة . وقد كشف عن أحدها بين عامى ١٨٩٨ و ١٩٠١ وأصبح كله ظاهراً للعيان . ومشيِّده هو الملك « نو اسر رع » . وهاك وصفه : يصل الانسان الى

معابد الشمس ووصفها

الربوة التى أقيم عليها المعبد بطريق مرتفع تدريجاً من المدينة الواقعة فى الوادى ، ثم يدخل الزائر من باب فخم ضخم يؤدى الى بهو عظيم مكشوف كان مقاماً فيه مسلة عظيمة الحجم متكئة على بناء مغطى بكتل جميلة من الجرانيت الأحمر . وكان امامها مذبح عظيم مشيد من كتل ضخمة من المرمر . وعلى يمين الداخل فى المعبد ممر مسقف ينتهى بغرف ذخائر المعبد، وفيها كانت تحفظ

---

* ضربت صفحاً هنا عن معابد الاهرام التى كانت مخصصة لعبادة الفراعنة فى الدولة القديمة . انظر المحاضرة الرابعة

أوانى التعبد وغيرها من الأشياء الثمينة. وعلى يسار الزائر ممر مثل سالفه يحاذى الجدار الجنوبى ثم ينعطف الى جهة الشمال وينتهى بقاعدة المسلة؛ وعند هذه النقطة ينحنى هـذا الممر على شكل سلم حلزونى يؤدى الى مسطح مكشوف . وكان عند قاعدة المسلة معبد صغير مزين بنقوش بارزة دقيقة الصنع تمثل الاحتفالات المختلفة التى كانت تقام فى اعياد الملك. ومن أهم هذه الاحتفالات عيد وضع الحجر الأساسى لمعبد الشمس . والظاهر أن هذا المعبد الصغير كان عبارة عن حجرة الملبس التى كان يستعملها فرعون عند الاحتفال بعيد تتويجه ، فكان يتزين فيها بملابس الاحتفال الفاخرة على اختلاف ألوانها

معابد الدولة الوسطى لم يبق منها شىء يذكر

أما المعابد العظيمة التى شيدت فى عهد الدولة الوسطى (أى فى النصف الثانى من الألف السنة الثانية قبل الميلاد) فى أمهات المدن المختلفة كطيبة و « قفط» ومدينة الفيوم و « بوبسطة » و « تنيس » ؛ فلم تبق لنا الأيام منها معبداً تاماً، اذ خربت كلها تقريباً فى عهد الهكسوس، ذلك العهد الذى سادت فيه الفوضى والاضطراب، وما بقى من انقاضها استعمله الفراعنة ثانية فى بناء معابد جديدة . غير أنه مما لا شك فيه ان تخطيطها كان قد ارتقى الى النمط الذى اتبع بعدُ فى تخطيط المعابد فى الأزمنة المتأخرة . فلنجتهد اذن للوقوف على كنه هذا التخطيط ونتصوره فى مخيلتنا :

كان يؤدى الى تلك البقعة المقدسة (المعبـد) طريق داخل المدينة مرصوف مزين كلا جانبية بتماثيل ابى الهول أو غيرها من الحيوانات الرابضة التى كانت تقدس عند المصريين . ويحيط بالمعبد جدار من اللبن . ويدخل الانسان من بوابة عظيمة مشيدة من الحجر لها طَنَفٌ محفور عليه رمز الشمس

المجنحة . وأول ما يعترض الزائر بعد اجتياز هذه البوابة « بيلون » عظيم : وهو عبارة عن باب ضخم ذى برجين مشيد أمام وجهة المعبد الضيقة . وبعد اجتياز هذا « البيلون » يرى الانسان نفسه فى ساحة واسعة مكشوفة مزينة جوانبها بالعمد وفى وسطها المذبح العظيم الذى كان يجتمع حوله الاتقياء فى ايام المواسم والأعياد . وكان محظوراً على العامة أن يتجاوزوا حدود هذه الساحة الى داخل المعبد . أما المعبد الحقيقى فواقع وراء هذه الساحة ذات العمد . وهو مشيد على رصيف صناعى مرتفع عن الساحة . ولا بدّ أن يشتمل على ثلاثة محال : الأول بهو صغير ذو سقف مقام على عمد ، ويليه بهو العمد ، وكان هذا يشاد عادة على شكل كنيسة ذات ثلاثة صحون متوازية أوسطها شاهق الارتفاع والصحنان الجانبيان منخفضان . ومن هذا البهو يصل الانسان الى قدس الاقداس وهو المقر الحقيقى للاله . وقد جرت العادة أن يشتمل قدس الاقداس على ثلاث مقاصير متلاصقة . ففى وسطاها كان يوضع تمثال الاله الأعظم (تمثال المعبود آمون) فى طيبة مثلاً ، وفى المقصورتين الأخريين كان يوضع تمثالا المعبودين المكملين للثالوث ، ففى طيبة كانت الالهة موت واله القمر « خنسو »

وصف المعبد

على ان تصميم المعابد المصرية فى جملته كان يشبه بيت المصرى القديم؛ اذ كان الأخير يقسم كذلك الى ثلاثة اقسام يلى الواحد منها الآخر : فالأول للاستقبال وهو ما يقابل فى المعبد بهو العمد ، والثانى للولائم ، والثالث خاص بصاحب البيت . وبالنظر لهذا التشابه بين المعبد والبيت ، كان المصريون محقين كل الحق فى تسمية المعبد « بيت الاله » . وكما أنهُ من البدهى أن المصرى النبيل كان لا يكتفى بثلاث حجرات في منزله، كذلك جرت العادة

تصميم المعبد كتصميم البيت

أن تشاد فى معبد الاله حجر اكثر مما ذكرنا؛ فكان بهو العمد عادة مفصولاً عن قدس الاقداس بقاعات أخرى إضافية ، وكان يبنى حوله كذلك عدة حجرات صغيرة قد تبلغ نحو الاثنتى عشرة . وكانت المعابد فى العصور المتأخرة خاصة، تشتمل على محراب مبنى امام قدس الاقداس خصيصاً للقارب المقدس الذى كان يوضع فيه تمثال خاص للاله .

وخلافاً لهذه المعابد البسيطة التصميم كان هناك معابد أخرى أعظم حجماً وأكثر ابداعاً فى التركيب . وسأكتفى هنا بذكر معبدى الأقصر والخورنق (الكرنك) اللذين لا يمكن ارجاع نظام هندستهما الى ما وصفت آنفاً . ويمكن تفسير وجه الشذوذ فى هندسة هذين المعبدين بأنهما لم يشيدا على حسب تخطيط واحد، بل كانا نتيجة تخاطيط عدة وضعها معماريون مختلفون. وعلة ذلك أن كل فرعون من الفراعنة كان يجب أن يشيد لنفسهِ هيكلاً فخماً على شكل جزء مضاف للمعبد الأصلى فيفاخر بذلك أسلافه . ولهذا السبب تجد أن معبد الكرنك له ما لا يقل عن خمس بوابات (شيدها ملوك عديدون) الواحدة تلو الأخرى ، وأن معبد الاقصر بهِ ثلاث ساحات عظيمة

تصميم معبدى الأقصر والكرنك مختلف عن المعابد السابقة

وقد جرت العادة أن يخصص مكان للحيوان المقدس الذى كان يتجسد فيه الاله على الأرض. فكان العجل أبيس معبود منف يتخذ مقامه على مقربة من معبد الاله فتاح وهو الاله الذى يتقمص ذلك العجل . وقد عنى الملك «بستمتيل» بتجديد مأوى العجل ابيس ، فصار يشتمل على ساحة مكشوفة يحيطها بهو يرتكز سقفه على عمد يستند عليها تماثيل الملوك والالهة . وكانت جدرانه كجدران المعبد مزدانة بالرسوم والنقوش البارزة . كذلك كان فى مدينة « ارسنيوى » من أعمال الفيوم بحيرة على مقربة من معبد الاله

مأوى الحيوان المقدس

« سبك » . وكان القوم يعتنون بالمحافظة على التمساح فى هذه البحيرة لأنهُ كان المظهر الذى يتجسد فيه الاله سبك

وقد روى لنا فى ذلك «استرابون» السائح الرومانى الذى زار مصر فى عهد الامبراطور اغسطس، ما يأتى :

التمساح وعبادته

« كان التمساح يعيش على الخبز واللحم والنبيذ التى كان يقدمها له الزوار الذين يفدون لمشاهدته . وقد رافقنا رب المنزل الذى كنا بضيافته الى البحيرة ومعهُ فطيرة صغيرة وجزء يسير من اللحم المشوى وزجاجة نبيذ . وعند وصولنا وجدنا التمساح نائماً على الشاطئ ، فتقدّم اليهِ الكهنة، وفتح واحدمنهم فمه، ودس آخر فيه الفطيرة، ثم أتبعها باللحم، وبعدئذٍ أفرغ زجاجة النبيذ أيضاً. وعند ذلك اندفع التمساح فى الماء هائماً الى الشاطئ الثانى . ثم ظهر زائر آخر يحمل هدية كالسابقة فأخذها الكهنة منهُ وهرولوا حول البحيرة وأطعموها التمساح كما فعلوا من قبل

وكان يوجد خارج المعبد الأصلى (فى دائرة جدران السياج العام) عدة مقاصير، ومساكن للكهنة ، ومبان شاسعة خاصة بالفلاحة ومخازن للغلال ، وحظائر، وحدائق وبرك . فكان المعبد ومرفقاته شبيهاً بمدينة صغيرة

المعبد مدينة صغيرة

ويشاهد فى المعابد المصرية ان المسطحات الملساء، كسطوح جدران البوابات والساحات والقاعات وغيرها من الاجزاء المخصصة للعبادة ، كل هذه مغطاة بالصور والنقوش الهيروغليفية وذلك من أقدم العصور ، فكانت الجدران الخارجية كجدران البيلونات والساحات (أو بعبارة أخرى كل أجزاء المعبد التى كانت عرضة لأن يراها عامة الناس) ينقش عليها مفاخر فرعون الدنيوية : كالشجاعة التى أظهرها فى ساحة الوغى ضد عدوه وتخليد

جدران المعابد تغطى بالنقوش

الأعياد العظيمة التى أقامها وغير ذلك من الحوادث الهامة فى تاريخ حياته .

بعثة حتشبسوت الى بنت

من ذلك أننا نرى مخلداً على جدار احدى ساحات معبد الدير البحرى فى طيبة الغربية ، تلك البعثة التجارية التى أرسلتها الملكة حتشبسوت الى بلاد بنت (الصومال) أرض الروائح العطرية ، وعودتها الى حاضرة الدولة تحمل كل أنواع التحف والطرف . وكان الغرض الأول من هذه النقوش أن يتصور الناظر اليها مقدار ما كان عليه فرعون من قوة وجلال

نقوش جدران المعبد الداخلية

أما جدران المعبد الداخلية فكانت موقوفة على تمثيل الاحتفالات الدينية التى تقام داخله . فنرى عليها الملك مرسوماً بزيه الرسمى ماثلاً أمام الاله ، يقدم له البخور أو يصب الماء أو يهدى اليه نبيذاً أو لبناً أو فطيراً أو أطواقاً من الأزهار، وفى مقابل ذلك يكافئه الاله بالحيـاة (وهى أثمن هدية) فى شكل أشارة هيروغليفية مدلولها « الحياة » . وفى مناظر أخرى نرى فرعون تتوجه الهتا الجنوب والشمال ، أو نرى اله المعبد الأكبر ينقش اسم فرعون على شجرة الجميز المقدسة حتى يضمن بذلك تخليد حكمه . وكثير من هذه المناظر لم يرسم الا لمجرد الزخرف ، ولكن غيرها كان مرتبطاً بالطقوس الدينية الخاصة بالجزء الذى هى فيه من المعبد . فكثيراً ما نرى فى حجرة الاستقبال الملك يصب عليه الإلهان حوريس وتحوت الماء المقدس ، وبعد ذلك يسير الى الحضرة الالهية مطهراً من كل غبار الحياة اليومية : أو نراه فى قدس الأقداس وهو يؤدى كل أنواع الطقوس الدينية أمام المركب المقدسة

ولا بد أن نعترف هنا ان معظم هذه الرسوم والصور متشابه* لا يكاد

(*) يلاحظ مثل ذلك فيما يكتب من الآيات القرآنية والأحاديث وغيرها على جدران المساجد — المترجم

تشابه النقوش في كل المعابد

يكون فيه تغيير وخاصة فى معابد العصور المتأخرة . ونرى هذا التشابه الممل بعينه فى الكتابات الهيروغليفية المرافقة للرسوم ، اذ الواقع أنها صور مما يلقيه الملك أمام الاله وما يجيب به الاله الملك . فيحيط فرعون الاله علماً مئات المرات انه أحضر له الروائح العطرية والخبز والنبيذ، ويجيبه الاله مراراً وتكراراً انه « سيهبه كل الحياة وكل السكينة وكل الخلود وكل الصحة وكل سرور القلب» ، أو انه « سيطيل سنى حياته أبدياً ويسوّده على عالَم مفعم بالسرور »

محتويات المعبد

أما الأوانى المقدسة التى كانت تستعمل فى العبادة ، كالأباريق والطاسات والأوعية التى كان يحفظ فيها كتب الأدعية والصلوات ، والمباخر وهلم جرا ، فلم يبق لنا منها الاّ النزر اليسير . فان هذه الأدوات التى كانت تحفظ فى معابد البلاد العظيمة ، والتى كان معظمها يقدم هدايا من فرعون ، رغم وفرتها ، سقطت غنيمة باردة فى أيدى غزاة البلاد ولصوص المعابد فى خلال الثورات العظيمة التى كانت تنتاب البلاد وتقلبها رأساً على عقب . وقد أصاب مثل ذلك السفينة المقدسة وتمثال الاله، وهما أثمن مشتملات كل معبد . اذ كان تمثال الاله يصنع غالباً من خالص الذهب أو الفضة أو الشبه المذهب، أما القارب المقدس الذى كان يحمل فيه الاله على الأعناق باحتفال مهيب ، فكان يصنع من مواد ثمينة محلاة بالذهب أو الفضة أو الأحجار الكريمة . أما زخارف مبانى المعبد فلا يزال باقياً منها شىء وفير . اذ فى كثير من المعابد ترى المسلات التى كان يقيمها فرعون على ما يظهر احتفالاً بيوم تتويجه، لا تزال شامخة برأسها الى يومنا هذا أمام مدخل بوابة المعبد . وكذلك نرى فى ساحات المعبد وقاعاته تماثيل الآلهة والفراعنة لا تزال قائمة ذات هيبة وجلال

ويتضح من قراءة الرموز الهيروغليفية التي على هذه الآثار، أو التأمل في الصور والنقوش البارزة التي على الجدران، أن المعبد لم يشيد الا لتخليد ذكرى فرعون، وانه هو الفرد الوحيد الذي منح شرف التقرب من الاله ومخاطبته. والظاهر أن ذلك كان صحيحاً نظرياً، اذ كان للملك وحده الحق أن يخدم الاله بدون وسيط، وله كذلك أن يشاهده ويناجيه. أما في الواقع فكان الأمر عادة غير ذلك. اذ لم نسمع باحتكار الملك هذا الحق لنفسه الا في أحوال نادرة. من ذلك انه لما سار «بيمنخي» ملك اتيوبيا (بجيشه المظفر) من جنوبي مصر الى قلب الديار المصرية حوالى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، دخل مدينة «عين شمس» كغيرها من البلدان وزار فيها معبد الشمس الذائع الصيت

بناء المعبد لتخليد ذكرى فرعون

« صعد الملك السلم ليرى إله الشمس في قدس الأقداس، فوقف الملك هناك منفرداً، ثم فض خاتم الزلاج وفتح مصراعي الباب، وشاهد أباه رع (اله الشمس) في قدس الأقداس الفاخر. وشاهد كذلك قارب رع في الصباح وقارب «أتم» في المساء. ثم أوصد مصراعي الباب ثانية ووضع عليهما الطين وختمهما بالخاتم الملكي: وبعدئذٍ أعطى الأوامر للكهنة قائلاً: أنا (وضعت هنا) خاتمي وليس لأي انسان من الملوك الذين سيأتون بعدي أن يدخل ههنا »

وكانت العادة المتبعة أن الكهنة أيضاً يناجون الاله باعتبارهم نواباً عن فرعون. وكان من واجباتهم أن يقوموا بأداء حاجيات الاله: فيلبسوه ويحملوه ويزينوه بحليه وينظفوا حجرته الخاصة — قدس الأقداس — ويبخروها بالروائح الزكية. وإذ كانت كل محادثة في البلاط مع فرعون تتطلب مراسيم

الكهنة ينوبون عن فرعون فى خدمة الاله

وتقاليد صارمة، فلا غرابة اذا كانت مناجاة الاله تستلزم ما هو أشد منها وأدق ؛ وكان عند الكهنة كتاب طقوس ثابت ضابط لصيغ الاحتفالات والصلوات اللازمة للاقتراب من الاله وخدمته . فكان لا بد لكهنة طيبة اتباع امون أن يؤدوا ما لا يقل عن ستين شعيرة دينية ، أما كهنة أزريس فى مدينة ابدوس (العرابة المدفونة) فكانت واجباتهم أهون من ذلك ، اذ كان عدد الشعائر التى يؤدونها لا يتجاوز الست والثلاثين

الشعائر الدينية

وكان لكل احتفال صلاة خاصة ترتل فيه ولا بد من اجادتها تمام الاجادة. وكثيراً ما كانت هذه الصلاة تنقش على جدار المعبد نفسه فيستطيع الكاهن أن يقرأها من الجدار

فمثلاً حينما كان يدخل الكاهن بهو العمد بالعرابة المدفونة وفى يده المبخرة كان من واجبه أن يردد الكلمات الآتية :

« مثلت أمامك أيها الواحد العظيم بعد أن طهرت نفسى

« ولما مررت بالالهة « تفنت » طهرتنى . . . .

« أنا كاهن هذا المعبد وابن كاهنه

« أنا كاهن حضرت لأقوم بعمل ما يجب عمله ولم آت لأعمل ما لا يجب عمله »

وعند ما يصل الكاهن أمام المقصورة حيث يتخذ الاله مقعده ، يجب عليه أولاً أن يفض الخاتم الطينى الموصد به الباب ، واذ ذاك يرتل العبارة الآتية : —

« لقد كسر الطين ودمر الخاتم ليفتح هذا الباب ، وكل ما احمل من شر ألقى به الى الأرض . »

ثم يقرأ تعاويذ أخرى فينفتح أمامه الباب. فيبدأ الكاهن بتحية الصل العظيم القائم على حراسة المعبود، ثم يدخل قدس الأقداس، حتى اذا بلغ تمثال الاله شرع فى تزيينه كما تزيّن الأحياء تقريباً. فيبدأ بخلع ثيابه ثم يزيل من جسده الدهان الأحمر القديم ويزينه بدهان جديد، ثم يأخذ فى إلباسه ملابس جديدة. وهو فى كل هذه الأعمال يقرأ الأدعية والصلوات جاعلاً لكل عمل منها صيغة خاصة. ولا يزال بالمعبود يلبسه ويزيّنه، حتى اذا جعله على أحسن هندام وأجمل رونق غادر مقصورته وسدّ عليه الباب بالخاتم مرة أخرى. وكانت عملية التزيين الالهى هذه تعمل كل صباح بنفس الإجراءات التفصيلية المتقدمة ولزومها كلزوم تنظيف المعبد وتبخيره كل يوم

تزيين الاله

ولم يكن الملبس والمسكن كل ما يلزم اعداده للاله، بل كان من الضرورى قبل كل شىء مده بالمأكل والمشرب. وقد كان لذلك المكانة الاولى فى كل الأزمنة. ففى بادئ الأمر كان يقوم بتقديمها أهل التقوى ومن أشربت قلوبهم حب الدين، اذ كانوا يقدمون لإلهتهم باكورة ثمار حقولهم وحدائقهم، وكل ما لذ وطاب من خيرات بيوتهم. بيد أنه على كر الأيام تلاشت هذه الهدايا أمام القرابين العظيمة التى كان يقدمها الملك الى المعابد فى جميع أنحاء البلاد: وفى مقدمتها الكميات الوافرة من البخور والأزهار لزينة المذابح، والشهد والخبز، والفطير، والماشية والدجاج؛ وبخاصة الأوز، والجعة والنبيذ

اطعام الاله والباسه

على أنه فى الواقع لم يستعمل من كل هذه القرابين فى شؤون الاله الا جزء ضئيل جداً وهو البخور وما يقدم للناس من المشروبات. حقاً ان الذبائح كانت توضع على موائد القربان فى فناء المعبد، لكنها لم تكن تحرق فى النار

القرابين فى الواقع تأكلها خدمة المعبد

كما كانت العادة عند أمم أخرى ، والحقيقة ان معظم المأكولات والمشروبات التي كانت تقدم للمعبد كان يأكلها الكهنة وصغار المستخدمين . أما القرابين الوفيرة التي تقدم في أيام المواسم والأعياد ، فكان جزء عظيم منها تولم به الولائم لزوار المعبد . وبها يظهر المعبود في معبده من كرم الضيافة لزواره ما يظهره المرء في بيته

وكان لكل معبد أعياد كثيرة في كل سنة . وقد روى هيردوت أن المصريين كانوا الى عهده يجتمعون مرات عدة خلال السنة ليقيموا الأعياد . وتمثل في هذه الاجتماعات الروايات الدينية . فيمثل الكهنة الحوادث الهامة في تاريخ حياة الاله الذي يحتفل بعيده . ففي العرابة المدفونة مثلاً كانت تمثل قصة الاله ازريس . وذلك بأن يسير موكب الاله من معبده بالمدينة الى مقره الأزلي في الصحراء ، وهنا يمثل الكهنة وغيرهم المعركة العظيمة التي قضى فيها أزريس على أعدائه القضاء المبرم

الاعياد في المعابد

وكذلك كانت تعقد احتفالات فيها يزور إله إلهاً آخر في معبده في موكب مهيب، فيقدم للإله الزائر وأتباعه الأطعمة من اللحم وأنواع الكعك . ومن هذه الأعياد ما نعرف عنه شيئاً يسيراً من النقوش التي على جدران المعابد ؛ كالاحتفال بعيد الضحية الذي يقام تكريماً لإله الحصاد المسمى « من » في نفس اليوم الذي يحتفل فيه بعيد تتويج الملك

تزاور الالهة في الاعياد

ومنها ما وصلت الينا عنه معلومات دقيقة ، ككيفية الاحتفال بها في الأعصر المتأخرة في مدن الوجه البحري مثل بوبسطه ، وبوصير ، وسايس (صا الحجر) ، وبوتو ، وغيرها تعظيماً لآلهة تلك المدن . ومن أشهر هذه الاعياد عيد المعبودة « باستت » آلهة بوبسطة . فقد روى هيردوت أن

عيد المعبودة باستت

المحتفلين بهذا العيد كانوا يتقاطرون رجالاً ونساءً على هذه المدينة من أقاصى البلاد فى زوارقهم . وقد كان هذا العيد آية فى الانس والسرور، اذ كان الوافدون اليه يمرحون ويلعبون ويلهون طوال طريقهم الى بوبسطة، وكان صدى الغناء والموسيقى يملأ سطح الماء، فالنساء يضربن على الدفوف والرجال يلعبون على المزامير وبعضهم يغنون أو يصفقون، وقد تنزل الجماعة منهم أحياناً بقرية من القرى التى يمرون بها فيقومون فيها بكل أنواع اللعب

وعند ما يصل الوافدون بوبسطة قبلتهم يقرّبون القرابين العظيمة ؛ ويقال انه كان يحتسى فى هذا العيد من الخمر أكثر مما يحتسى فى كل البلاد فى سائر العام، كما قيل ان عدد الزوار الذين اشتركوا فى أحد هذه الاعياد بلغ ما لا يقلّ عن ٧٠٠,٠٠٠ نسمة . وقد يكون هذا العدد مبالغاً فيه، غير أنه مما لا مشاحة فيه أن بوبسطة كانت تضم بين جدرانها فى مثل هذا العيد من الزوار ما تضمه مدينة طنطا الحالية مثلاً أيام المولد الأحمدى

وكان عدد التسابيح والاغانى التى ينشدها الكهنة ودهماء القوم معددين مناقب آلهتهم عظيماً . وبعضها يثير شعوراً دينياً طاهراً وينبئ عن حماس شعرى يجد له مكاناً فسيحاً حتى فى صدر القراء فى وقتنا هذا، غير أن

مدلول الاغانى الدينية

المدلول الدقيق لمعظم هذه الاغانى يضيع بكثرة تكرار العبارات تكراراً مملاً جداً . وقد اقتبست لكم فى محاضرتى الثانية نماذج من هذا النوع من الأدبيات ؛ وربما يكون عندكم الميل لسماع شىء آخر لتكوّنوا لأنفسكم فكرة عن شكل هذه القصائد ومحتوياتها .

وسأبتدئ بترجمة بعض أبيات من تسبيحة للإله تحوت (وهو هرميس عند اليونان) وفيها يمتدحه القوم بأنهُ إله القمر ثم إله العلماء ثم قاض :

« انى آتى اليك أيها الثور بين النجوم ، أى تحوت ، أنت أيها القمر الذى فى السماء . أنت فى السماء ومع ذلك يفيض بهاؤك على الأرض ، شعاعك ينير مصر

تسبيحة للاله تحوت

الحمد لك أنت يا رب اللغة المقدسة (الهيرغليفية)، أنت أيها القاضى فى السماء والأرض . أنت يا واهب الكلام والكتابة، ومانح السلع ومالئ البيوت (بالخيرات) ، يا من يعلّم علم الآلهة ، وما يجب نحوهم »

وكذلك يتجلى جمال التعبير وصدق الشعور فى تسبيحة ترتل خطاباً للاله «أمون رع» ملك الالهة وفيها يتمدح هذا المعبود بأنه هو الاله الأعظم الموجود فى كل شيء . وهي :

« يا الهى يا رب كل الالهة يا أمون رع طيبة
امدد الى يدك ونجنى
اشرق لأجلى (كالشمس) أجبني ثانية
أنت الاله الأحد الذى لا شبيه له
أنت الشمس التى تشرق فى السماء
أنت (الاله) « أتم » الذى برأ الانسان
أنت تسمع دعاء من يدعوك
أنت تخلص الانسان من يد القوى
أنت تمنح نسيم الحياة لما لم يخرج بعد من البيض للناس والطيور
أنت تخلق ما تحتاج اليه الفيران فى أحجارها والدود والبراغيث »

تسبيحة للاله امون رع

ويلاحظ أن كثيراً من هذه العبارات ينطبق بوجه خاص على اله الشمس ويشابه عبارات التسبيحة العظيمة التى وضعها الملك الزائغ اخناتون

وهى التى أسلفنا الكلام عليها فى المحاضرة السابقة

لم تكن خدمة المعابد فى أقدم عصور الأمة المصرية وقفاً على طائفة خاصة من الكهنة، بل كانت حقاً مشاعاً لكل أفراد الأمة. حقاً كان لكل معبد خَدَمهُ الخاصة الذين يقدمون له الضحايا ولا يفترون لحظة عين عن خدمته، غير أنه فى الوقت نفسه كان لكل فرد من علية القوم فضلاً عن وظيفته الدنيوية وظيفة أخرى دينية. وكان لهذه الأخيرة غالباً علاقة بالوظيفة الدنيوية. مثال ذلك أن القضاة كانوا غالباً كهنة « معت » الهة العدل، وكان حكام الأقاليم غالباً رؤساء كهنة المعبودات التى تحمى مقاطعة كل منهم

الوظائف الدينية حق مشاع فى أول الامر

وقد زعم هيردوت أنه كان محرماً على المرأة أن تشغل وظيفة كاهنة سواء أكان ذلك لمعبود أو معبودة. وهذا قول لا نصيب له من الصحة فيما يتعلق بالعصور الأولى من التاريخ المصرى. فقد كانت النسوة وقتئذ يستخدمن فى المعابد، وكثيراً ما نجد ذكر الكاهنات وخاصة فى عبادة الالهات كالالهة حاتحور والمعبودة نيت

المرأة تكون كاهنة

وفى عهد الدولة الوسطى كان عدد الكهنة الرسميين لا يزال قليلاً بالقياس الى غيرهم. ففى معظم الأحيان كان للمعبد كاهنان فقط، واذا زاد على ذلك فلا يتجاوز الخمسة، يضاف الى هؤلاء طبعاً عمال من الدرجات الصغرى كالبوابين والحراس والفعلة على اختلاف أنواعهم. وفى بعض المعابد كانت مناصب الكهنة الرسميين تشمل منصب «رئيس الكهنة» أو كما يسميه المصريون أنفسهم « نائب الكهنة» ، غير أن هذا المنصب كان يشغله عادة رجل من غير رجال الدين هو حاكم المقاطعة. وذلك جرياً على عادة قديمة. فكان بذلك لهذا الحاكم السيادة السياسية والدينية فى مقاطعته. وأصبح من واجبه

الكهنة الرسميون

منصب رئيس الكهنة

أن يسهر على صالح رعاياه من الوجهة الدينيـة . ولا شك أن اضافة هذه الوظيفة الى عمله زادته شرفاً ورفعة كما أكسبته فوائد مالية وفيرة . يضاف عامل آخر ذو مقام سام بين الـكهنة الرسميين فى كل معبـد يسمى المقرئ الأول ، وكان يعتبر عالماً بالعلوم اللاهوتية فى معهد الـكهنة، وهو الذى عنده علم الـكتب المقدسة ويعرف الـكتابة ويجيـد القراءة قبل كل شيء . وعمله أن يرتل الـكتب المقدسة جهراً . وكان ملماً بأساطير الأقدمين متضلعاً فى متون السحر، ولا عجب اذن ان كان ينظر اليه كأنه ساحر عظيم، كما لا غرابة فى أن مقرئى الكهنة فى مصر فى عهد الفطرة قد اشتهروا فى الأساطير المتداولة بأنهم أتوا بفضل حكمتهم بكثير من العجائب والغرائب والأشياء الخفية

أعمال المقرىء

وكان عند المصريين عدا الـكهنة الرسميين جيش جرار من الـكهنة غير الرسميين أو كهنة الساعة كما يعبر عنهم المصريون أنفسهم . وكانت تضمهم جماعة منتظمة دائمة تنتسب الى المعبد، وكل جماعة تقسم الى أربع فرق تقوم كل منها بخدمة المعبد مدة شهر بالتناوب، فتخدم كل واحدة ثلاث نوبات فى العام . وكان لـكل فرقة رئيس خاص وكاتب للمعبد ومقرئ ، أو بعبارة أخرى كان أعضاء هذه الفرق متعلمين تعلماً علمياً، ولا شك انهم كانوا يعدون فى الحياة الملكية فى صف الـكتاب أو المستخدمين . وفى حين كان الـكهنة الرسميون يتمتعون بمرتبات عظيمة يجبونهـا من دخل المعابد الوفير، كان كهنة الساعة يتقاضون مرتبات ضئيلة جدًّا . والحقيقة أن الجزء الأعظم من دخلهم كان من وظائفهم المدنية ، أما وظائفهم الدينية فكانوا يؤدونها فى مقابل أجر زهيد جدًّا ، يدلنا على ذلك ماوجد فى دفاتر حساب الدولة المتوسطة . فقد ذكر أن دخل أحد المعابد كان ينشر شهرياً ، فيتقاضى منهُ رئيس كهنة

كهنة الساعة والفرق بينهم وبين الكهنة الرسميين

الساعة (أى رئيس الكهنة غير الرسميين) ثلاثة أسهم فقط، فى حين أن رئيس الكهنة المقرئين، وهو فى الحقيقة أقل من سابقه رتبة ومقاماً ولا يمتاز عنهُ الاّ بأ نهُ من الكهنة الرسميين، كان يتقاضى ضعفي ذلك المقدار أى ستة أسهم. يضاف الى ذلك أن هذا كان يتقاضى مرتبه اثنى عشرة مرة فى السنة، أما اخوه من كهنة الساعة فكان لا يأخذ مرتبه الاّ ثلاثة أشهر فى العام بالنظر الى تناوب العمل بين الفرق كما أسلفنا

والآن نذكر حقيقة ذات شأن فى تاريخ المدنية، وهى انهُ لما جاءت الدولة الحديثة التى أعقبت طرد الهكسوس من البلاد، واخذت الديانة تجد لها مكاناً رحباً ويعظم شأنها فى نفوس القوم وحياتهم، فصلت فرقة كهنة الساعة من عداد الكهنة المصريين، وقُصرت كل أمور العبادة على الكهنة الرسميين وأصبح لاينازعهم فيها منازع. ومن البدهى أن عدد هؤلاء قد ازداد بذلك زيادة عظيمة. فان كثيراً من الأعمال التى كانت من واجبات كهنة الساعة انتقلت بطبيعة الحال الى الكهنة الرسميين؛ يضاف الى ذلك أن ادارة ثروة المعابد الوفيرة التى كانت فى ازدياد مستمر، تطلبت استخدام عدد عظيم من العمال

قصر الوظائف على الكهنة الرسميين

أما حدود عمل كل كاهن ونوعه فيمكن الوقوف عليه من اسم وظيفته والألقاب الأخرى التى يحملها. فمثلاً «النبي الأول» أو رئيس كهنة امون» كان فى الوقت عينه يحمل لقب «المدير الأكبر للأشغال» وكان ذلك يقضى بأن يأخذ على عاتقه اعمال البناء الشاسعة الخاصة بالمعبد وأن يعمل على ما يكسبه (الاله) بهاءً فى مقصورته. ومن ألقابه كذلك «قائد جيوش المعبود»، ولذلك كان يقود جنود المعبد، ومثله فى هذا كمثل رئيس الأساقفة فى القرون الوسطى بأوربا. ومن أعماله أيضاً رياسة المالية. فكان يدير

رئيس الكهنة وأعماله

حركة مالية المعبد وهذا فى الحقيقة عمل لا يستهان به . ولم يقتصر نفوذه على معبد الاله امون وكهنته ، بل كان رئيساً لكهنة الهة طيبة وكذا رئيساً لكهنة جميع الهة الشمال والجنوب . ومعنى ذلك ان كل كهنة البلاد كانوا تحت اشرافه، وان فى قبضته اكبر سلطة دينية فى كل البلاد من أقصاها الى أقصاها . وقد عرف كيف ينتفع من تلك السطوة تمام الانتفاع ، فانهُ كلما خلا منصب رئيس الكهنة فى معبد من المعابد الأخرى، (كرئيس كهنة معبد الشمس فى هليوبوليس) وما يليه من المناصب ، لم ينصب فيها أحد الاّ من وقع اختياره عليه . وبهذه الكيفية أصبح فى يد كهنة طيبة أموال طائلة فوق ما لهم من القوة السياسية العظيمة ؛ اذ كان دخل المعابد القديمة العظيم يتدفق الى خزائن هذه الطائفة وحدها . وسيظهر لنا جليا بعدُ ما عاد على الدولة من الأخطار من جراء ذلك

ومن حسن المصادفات أن لدينا مصادر وثيقة عن الخطوات التى كان يدرج فيها الفرد حتى يرقى الى أعظم رتبة دينية عند قدماء المصريين . فقد روى « بكنخنسو » الذى كان رئيساً لكهنة امون بطيبة فى عهد رمسيس الثانى فى القرن الثالث عشر ق . م ، فى تاريخ حياته الذى كتبه بنفسه ، أنهُ تربى تربية حربية فى أحد اصطبلات فرعون من الخامسة الى الخامسة عشرة من عمره . وفى السادسة عشرة الحق بخدمة أشهر المعابد المصرية فجُعل عندئذٍ كاهناً صغيراً . ولما ناهز العشرين اجتاز هذه الدرجة الدنيا ، فارتقى الى الدرجة التى تليها وهى « اب الاله » . ومكث فى هذه الدرجة اثنى عشر عاماً . وفى سن الثانية والثلاثين رقى الى درجة « نبى » فمكث « رئيس الكهنة الثالث » (نبياً ثالثاً) مدة خمسة عشر عاماً ، فنبيا ثانياً مدة اثنى عشر عاماً . وفى

حياة بكنخنسو

التاسعة والخمسين من عمره نصبه فرعون منصب « أول انبياء امون ورئيس رؤساء كهنة جميع الالهة ». وقد أظهر نفسه فى مركزه الجديد ابا شفيقاً لمرءوسيه، فربى شبانهم ومد يد المساعدة لمن كانوا على شفا السقوط وبذل عن سعة لمن عضهم الفقر بنابه

على أنهُ لم يكن فى مقدور كل فرد أن يرقى فى حياته ذلك الرقى الباهر الذي ناله بكنخنسو، اذ الواقع أن الأفراد الذين كرسوا حياتهم للكهنوتية كانوا كأمثالهم فى سائر أنحاء الدنيا ، يظلون طول حياتهم فى وظائف صغيرة ، ويقنعون بالبقاء بين جدران المعبد فى سكينة وطمأنينة بعيدين عن هموم العالم وأحزانه ، اللهمَّ الاَّ من منحهم الله مواهب عظيمة أو من عضدهم ذو جاه ونفوذ

وكان زى الكهنة فى العصور الأولى أيام كانت طائفة الكهنة الرسميين قليلة العدد ، لا يختلف كثيراً عن زى سائر الناس . ولم يكن بينهم من امتاز بملبسه الاَّ رؤساء المعابد الكبرى، فكانوا يرتدون شعاراً معيناً شارة لعظم مكانتهم . من ذلك أن رئيس كهنة فتاح كان يتحلى بحلى خاصة فى رقبته ، مزينة بصور حيوانات عجيبة الشكل ساذجة، يدل أسلوب صنعها على أن منشأها لم يكن من العصر التاريخى بل يرجع الى أقدم عصور الفطرة . وكذلك كان بعض أفراد الكهنة يرتدون جلد فهد على أكتافهم بمثابة جزء من زيهم الرسمى

زى الكهنة

ولما أخذ شأن الكهنة يعلو ويعظم فى أعين القوم ، وازداد عددهم وعظمت قوتهم فى عهد الدولة الوسطى، شرعوا يوجهون عنايتهم تدريجاً لجعل ملابسهم تدل على أنهم طائفة خاصة متميزة عن سائر بنى الانسان ، وبقوا كما بقى قساوسة العهد الحالى محافظين على ملابس العصور الأولى الساذجة متجنبين

طريف الازياء ، وتخلوا فى الوقت نفسه عن التحلى بالشعر المستعار ، الذى كان اذ ذاك الزى السائد ، ومشوا فى الطرق محلقين رءوسهم محافظة على النظافة

محافظتهم على القديم

وفى العصور المتأخرة بقى الكهنة متمسكين بهذه الظواهر بشدة عظيمة أكثر من قبل . وذلك فى وقت كانت المحافظة فيه على الآداب من الأهمية بمكان ، اذ كانت روح القومية فى النزع الأخير وكان القوم يعملون بشدة على أحيائها باتباع عوائد أجدادهم القديمة

وقد روى لنا هيردوت بكل صراحة أن الكهنة كانوا يحلقون الجسم كله مرة كل ثلاثة أيام ، حتى لا تأوى الحشرات جسد من يخدمون الآلهة وكذلك كانوا يلبسون أردية من الكتان وأحذية من صنع « ببلوس » ، وحرم عليهم أن يلبسوا غير هذه الملابس أو ينتعلوا غير هذه النعال . وكانوا يستحمون مرتين بالماء البارد نهاراً ومثلهما ليلاً . وغير ذلك كثير من العادات التى كان يجب عليهم الخضوع لسلطانها

الكهنة يتمسكون بالنظافة

وقد أضاف هيردوت فى هذا المقام أنه عند وفاة رئيس الكهنة كان يخلفه ابنه فى عمله . حقاً أن توارث الوظائف من الأب للابن كان شائعاً، غير أن ذلك لم يكن قاعدة مطردة . ولم يحدث فى أى عصر من عصور التاريخ المصرى فى طائفة الكهنة الرسميين أن يضطر الابن الى أن يحذو حذو والده فى حرفته ، ويحرم عليه الاحتراف بأى مهنة أخرى . غير أنه يرجح أن الأب (كما يشاهد في كل عصر) اذا رأى نفسه يرتع فى بحبوبة العز والرخاء من جراء وظيفته الدينية ، ودّ من أعماق قلبه أن يرى ابنه أو أولاده ينعمون بها باقتفاء أثره فيها . وبهذه الطريقة يجوز أن بعض الامتيازات أو الوظائف الخاصة بقيت فى أسرة واحدة مدة أجيال

وظيفة الكاهن لم تكن وراثية

وقد كان سد حاجات الاله المدة كالقرابين و بناء المعابد الضخمة ، ودفع مرتبات طائفة رجال الدين الكثيرة العدد ، مما لا يمكن القيام به دون أن يكون لذلك منابع ثروة وفيرة . والواقع أن الفراعنة اعتادوا من أول الأمر أن يفيضوا على معابد البلاد الخيرات الجزيلة ويهبوها الضيع وغيرها من الأملاك المتنوعة . هذا بالاضافة الى ما كان يتدفق من الهدايا الوفيرة الى خزائن الاله فى ظروف خاصة ، كالنذر أو أن يكون الاله قد لحظ الملك بعنايته فى أمر خطير الشأن.

منابع ثروة المعابد من النذور والعطايا

وأول عطاء وعاه التاريخ من هذا النوع ما قدمه الملك زوسر (الأسرة الثالثة) الى « خنم » معبود مقاطعة الشلال . فان لدينا وثيقة مطولة عن هذا النذر جاء فيها أن الفيضان انخفض سبعة أعوام فى حكم هذا الملك، فعم البؤس، وانتشر الحزن والأسى بدرجة قصوى فى أنحاء البلاد ، وتمشى الخوف والجزع فى قلب الملك ووليجته بحالة شنيعة . ولما لم يجد فرعون مخرجاً من هذه الضائقة لجأ الى الحكيم « امحوتب » الذى صار بعدُ عند قدماء المصريين اله الطب ، وطلب اليه أن يرشده عن المكان الذى « ينبع منه النيل » وعن المعبود الذى يسيطر على تلك الجهة . ولما لم يكن فى مقدور هذا الحكيم أن يجيب فرعون على الفور رجاه أن يمهله مدة يغيب فيها كى يطلع على الكتب المقدسة فى هذا الموضوع ، ثم انصرف من عند فرعون ولم يلبث أن عاد اليه سريعاً وكشف له عن « العجائب الخفية » — عن الطريق الذى لم يره ملك من الملوك منذ عصور سحيقة . فروى أن النيل ينبع من مدينة فى وسط المياه اسمها جزيرة الفيلة الواقعة على حدود بلاد النوبة السفلى . وكان الماء عندها يسمى « الفتحتين » وهى مهد النيل .

أول نذر

قصة قحط السنين السبع

أما إله هذه الجهة فهو المعبود « خنم » ويقع باب معبده فى الجنوب الشرقى . وكذلك كان يعبد هناك الالهتان « ساتت » و « عنقت » زوجتا خنم؛ هذا فضلاً عن عبادة النيل نفسه والآلهة « شو » و « جب » و « نوت » و « أزريس » و « حوريس » والالهتين « إزيس » و « نفتيس » . وتوجد على مقربة من هذه الجزيرة على الشاطئ الغربى ، جبال شامخة تشتمل على جميع أنواع الأحجار والمعادن الصلبة التى تلزم فى بناء كل معابد الوجه القبلى والوجه البحرى ومقابر الملوك وتنحت منها كل أنواع التماثيل . والمقصود هنا بالطبع هو الجرانيت الجميل الذى كان يقطع من أقدم العصور من المحاجر المجاورة لبلدة «سيّن» (اسوان) الواقعة على الشاطئ الشرقى للنيل . يضاف الى ذلك ان كل أنواع الأحجار الكريمة والمعادن من ذهب وفضة ونحاس وحديد ولازورد وغيرها كانت تستخرج من كلا شاطئى النيل ومن الجزر التى فى هذه البقعة من النهر

فلما سمع فرعون تقرير امحوتب الحكيم امتلأ قلبهُ فرحاً وأمر بتقريب القرابين الى الهة والهات الفيلة الآنفة الذكر

وقد رأى الملك مناماً فى الليلة التى تلت هـذا الحادث : فرأى الاله « خنم » واقفاً أمامه . وبعد أن قدم اليه واجبات الاحترام والتعظيم أماط الاله اللثام عن نفسه قائلاً :

« أنا الإله خنم خالقك وحاميك . أنا أعطيك المناجم والمعادن التى لم يكشفها أحد فى كل عصور التاريخ والتى لا تزال بكراً ، لتبنى بها المعابد وتصلح ما أفسده الدهر منها ، لأنى أنا الخالق الذى ذرأ نفسه والمحيط الأبدى الذى ظهر أزلياً ، أنا النيل الذى يفيض حينما يشاء ، أنا مرشد كل انسان فى

عمله . . . . . أنا أملك الفتحتين اللتين منهما يفيض النيل . أنا أعرف النيل . . . . سأجعل النيل يفيض لأجلك . ولكن يفيض ماؤه فى أى سنة من السنين ، وستنوء الأشجار بأثقالها من الفاكهة وستنشرح أفئدة القوم بدرجة لم تعهد فى الأزمان الغابرة »

وعند انتهاء العبارة السالفة انتبـه فرعون من منامه . ولما كان السرور قد ملأ صدره لما وعده به الاله ، أصدر أمراً بوقف كل أقليم الشلال الواقع على ضفتى النيل على الاله « خنم » اعترافاً له بالجميل

ويحتمل أن أمثال هذه المنح من الأرض كانت توهب للمعابد فى كل العصور ، غير أن ممتلكات الآلهة فى الدولة الحديثة ازدادت على الأخص لتمتعها بالنصيب الأوفر من الغنائم التى كان يجنيها فراعنة الأسرة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة من حروبهم المظفرة مع الممالك النائية . وكانت هذه الهدايا تعتبر بمثابة جزية يستحقها الاله الذى على يده نال فرعون النصر . ولا تزال النقوش من عهد تحتمس الثالث وسيتى الأول باقية الى عهدنا هذا وفيها بيان العطايا الفرعونية التى قدمها الملك الى الكهنة

مقدار ثروة المعابد

ومما هو جدير بالذكر فى هذا الصدد ، وثيقة من أواخر حكم رمسيس الثالث (حوالى ١١٥٠ ق . م) ، منها يستطيع الانسان أن يكوّن فكرة صحيحة عن الثروة الطائلة التى كانت ملكا للمعابد المصرية فى هذا العهد ، فقد جاء* فيها أن ممتلكاتها لا تقل عن ١٠٣١٧٥ خادماً و ٤٩٠٣٨٦ رأساً من الماشية و ٥١٣ حديقة و ١,٠٧٤٤١٨ فداناً من الأرض و ٨٨ مركباً و ٥١ ½ حوضاً للسفن و ١٦٩ بلدة بعضها فى وادى النيل و بعضها خارجه . أما أتباع المعابد

* ورقة هرس بالمتحف البريطانى

السالفو الذكر فيحتمل ان بعضهم كان من أسرى الحرب، وبعضهم من الفلاحين الأرقاء أو الصناع؛ وعليهم فلاحة الأرض، وحراسة قطعان الماشية، وكذلك كانوا يسخرون فى بناء المعابد العظيمة كما كان يسخر بنو إسرائيل من قبلهم. وكان جم غفير منهم يضطرون أيضاً الى دفع ضرائب من الذهب والفضة وغيرها من المحصولات الطبيعية. واذا قدرنا عدد الحقول الوفيرة التى كان يملكها الالهة فانه يحق لنا مع مراعاة النسبة ان نقرر أن جزءا عظيماً من أرض مصر كان ملكا للموتى

فاذا وازنا ممتلكات المعبود أمون بالاحصائيات الحالية امكننا القول بأنه كان يملك عشر أرض مصر وما لا يقل عن $\frac{1}{100}$ من عدد سكانها. وكان يلى أمون فى الثراء من الالهة المصرية اله الشمس «رع» معبود هليوبوليس، ثم «فتاح» معبود منف. ومن ذلك يتضح ان الكهنة قبضوا على جانب هائل من ثروة البلاد جعل لهم فى الوقت عينه سلطة سياسية عظيمة. وكانت نتيجة ذلك تشبه ما نراه فى زماننا هذا فى دول العالم وعلى الأخص دولة أسبانيا*

رئيس الكهنة يتولى عرش الملك

وأصبح لكهنة أمون فى النهاية النفوذ الاكبر فى الدولة، حتى أنه بعد موت أخر الرعامسة لم يكن أمامهم عقبات تذكر فى تولى العرش، فقام أحدهم فعلاً ونحى بوارث العرش جانباً وتقلد هو تاج الملك. وهذا الحادث يعد فى تاريخ الكهنوت المصرى قمة ما وصل اليه رجال الدين من الجاه، وهو، وان لم تدم مدة حكمهم طويلاً، دليل قاطع على تغلب رجال الدين على الساسة؛ وكان فى ذلك القضاء الأبدى على العظمة القومية

---

* أنظر كتاب أوروبا الحديثة جزء أول

المحاضرة الرابعة

فن السحر — الحياة بعد الموت

كان قدماء المصريين ومن جاء بعدهم من أبناء الشرق، مسلمين ومسيحيين على السواء، ممن ملأت الخرافات والخزعبلات عقولهم. ولذا نرى فن السحر قد لعب دوراً هاماً فى حياتهم. فكانت التعاويذ الدواء الناجع الذى يطب به كل أنواع الشرور، والعلاج الذى يشفى الأمراض، والطريقة المثلى التى يكتسب بها المحب رضاء حبيبه. فاذا تسنى لشخص أن يضع تماثيل مسحورة فى بيت عدوه اعتقد أن ذلك إما أن يجلب له المرض أو يسبب له عاهة.

الاعتقاد فى السحر وقوته

وكانت التعاويذ التى تستعمل فى مثل هذه الأحوال تفضل على غيرها اذا كان لها علاقة خاصة بحادث ما وقع فى تاريخ الألهة الخرافى. اذ كان القوم يعتقدون أن الطرق التى استعملتها الألهة وأتت بنتيجة حسنة تأتى بالنتيجة عينها اذا استخدمها الانسان فى أحوال مشابهة لها. وكان لأساطير الألهة «أزريس» و«إزيس» و«رع» القدح المعلى فى هذا الشأن. من ذلك أنه بعد أن فجعت الألهة «إزيس» بموت زوجها الحزن وضعت ذكراً فى مناقع الدلتا سمته «حوريس»، واتفق أنها ذات ليلة أثناء إيابها من الحقول وجدت ابنها فاقد الحياة مبللاً الأرض بدموعه وبالزبد الذى كان يتدفق من شفتيه، جسمه هامد، وقلبه لا حراك به، وجميع أعضائه فارقها نبض الحياة، فعزت هذا إلى لدغة عقرب. ولم تر تلك الأم المحزونة البائسة ملجأ تلجأ اليه ولا عوناً تستعين به إلاّ اله الشمس، فلبى نداءها ووقف سير سفينته فى السموات،

اسبابه

وأرسل اليها « تحوت » إله الحكمة ليخلص ابنه ، فأعاده « تحوت » هذا الى الحياة بتعاويذ سحرية . لذلك اعتقد القدماء أن هذه التعاويذ بعينها التى شفت « حوريس » الطفل تشفى أى إنسان من لدغة العقرب

على أن أكبر قوة سحرية كانت وقفاً على الذين يعلمون الاسم الخفى للاله الأعظم « رع » الموجود فى كل شىء . وقد مكث هذا الاله زمناً مديداً محافظاً على اسمه الخفى لا يعلمه أحد غيره إلى أن تمكنت « إزيس» الساحرة العظيمة من استلاله منه بحيلة ، ومن وقتئذ أصبح لها سلطان قوى وبطش عظيم . وقد وضحت كيفية وصولها الى ذلك فى خرافة قديمة . وهذه الخرافة تعيد لنا سيرة الاله « رع » الهرم رب الالهة والناس . وكان وقتئذ قد بلغ من الكبر عتياً ، وذهب عنه بعض روعته وجلاله ، وكانت « إزيس » بوجه خاص لا تعترف بعد بسلطانه ، وترغب فى أن يكون لها ما له من النفوذ والقوة فى السماء والأرض . ولم تر للوصول الى ذلك الاّ طريقة واحدة ، وهى أن تحفظ كل أسمائه المتعددة التى كان لا يعلمها الا هو والتى بها صار له السلطان على العالم . فدبرت احبولة لتستولى بها على هذا السر ، بأن أخذت شيئاً من اللعاب الذى كان يلقيه على الأرض ، ولاكته بطين ، وصورت منه ثعباناً ، وألقته فى الطريق الذى كان الاله مغرماً بالمرور به فى خلال تجواله فى دولته . وبينما كان » رع » متجولاً برفقة أتباعه من الالهة لدغه هذا الثعبان ، فصاح من شدة الألم حتى بلغ صياحه عنان السماء ؛ فسأله أتباعه والوجل ملء قلوبهم : ما الذى يؤلمك ؟ ما الذى يؤلمك ؟ ولكن لم يكن فى مقدوره اجابتهم . وأخذ فكاه يصطكان وسرى السم فى عروقه . ولما هدأ روع الاله الأعظم نادى حاشيته قائلاً « تعالوا إلىّ يا من برأتهم من لحمى ، أنتم أيها الالهة الذين خلقوا

اسم الاله الاعظم اكبر قوة سحرية

ازيس تحتال لمعرفة هذا الاسم

منى . لقد الحق بى الضر شىء مؤذ يشعر به قلبى ولا تراه عيناى . ذلك شىء لم تصنعه يدى ، ولا أعرف أى يد صنعته . وإنى لم أشعر بمثل هذا الألم طول حياتى، ويخيل الى أنه لا يوجد مرض أشد من ذلك. أنا أمير وابن أمير . أنا الذى له أسماء عدة وأشكال متنوعة ، صورتى تظهر فى كل اله. وكان أبى وأمى يتكلمان باسمى. ثم اخفاه (الاسم) الذى أوجدنى فى أعماق قلبى، حتى لا يكون لأى سحر سلطان على . ولكن واعجباه ، بينما كنت متجولاً أتفقد أحوال مخلوقاتى فى أنحاء دولتى لدغنى شىء لا أعرفه ، هل هو نار ؟ هل هو ماء ؟ ان قلبى مشتعل من شدة الاحتراق ، وجسمى يضطرب ، وكل فرائصى ترتعد ، فليحضر الىّ أبناء الالهة الذين ينطقون بالحكمة وتمتلئ أفواههم فهماً وتصل قوتهم الى السماء ! ! »

عندئذ أتى الالهة والحزن ملء قلوبهم، وكذلك حضرت «إزيس» صاحبة ذلك الجرم . وهى التى تنفث من فيها ريح الحياة ، وتشفى عزماتها كل ألم وتحيي كلماتها الموتى ، فقالت : « ما الذى يؤلمك ؟ ما الذى يؤلمك ايها الأب المقدس ؟ لقد جلب لك ذلك المرض ثعبان مخلوق من مخلوقاتك ، قد رفع رأسه ضدك ، ولكن كل ذلك يزول أمام قوة السحر ، وسأقضى عليه امام طلعتك البهية »

ثم وصف لها الاله نوع آلامه ، فأجابته «إزيس» : « اذكر لى اسمك أيها الأب المقدس، فان كل من يدعى باسمه يعيش حتماً . فأجابها « رع » قائلاً: أنا الذى برأت السموات والأرض ، وخلقت الجبال وكل حى عليها ، خلقت الماء والمحيط الأزلى العظيم . أنا الذى خلقت السموات وسر أفقها ، ومنحت الآلهة أرواحهم التى فى صدورهم . أنا الذى اذا فتح عينهُ يمتلئ العالم نوراً، واذا

أغمضها يخيم الظلام. أنا الذى بأمره يفيض النيل، ومع كل ذلك لا تعرف الآلهة اسمه. أنا الذى خلقت الساعات والأيام. أنا الذى أرسل السنين، وحد مواقيت الفيضان. أنا الذى أصنعُ النار الحية، «خبرى» فى الصباح و «رع» وقت الظهيرة و «أتم» عند الغروب

بيد أنهُ مع هذا لم تخفّ وطأة السم، بل ازداد الوجع وبقى الاله الأعظم يتململ من شدة المرض. عندئذٍ قالت «إزيس» للاله «رع»: «هذا الذى نطقت به ليس باسمك. اذكر لى اسمك تذهب عنك الآلام، لأن من يذكر اسمه يعيش». ثم أخذ سعير السم يشتد لدرجة يتضاءل امامها لهيب النار. فقال جلالة الاله «رع»: «اقتضت ارادتى أن تفحصنى الالهة «ازيس» وأن ينتقل اسمى من صدرى الى صدرها»

عندئذٍ أخفى الاله نفسه عن الالهة، وأصبحت سفينة الأبدية (سفينة الشمس) خاوية. وقد أخذ اسم الاله منهُ بطريقة غريبة، وحفظتهُ الإلهة «ازيس». ثم كررت رقيـة خففت آلام السم، وعادت الى «رع» صحته ثانية. وبذلك أصبحت ازيس، الالهة العظيمة وسيدةُ الالهة، تعرف الاسم السحرى الخفى لإله الشمس. ومن وقتئذٍ ساد الاعتقاد أن فى قدرة أى انسان أن يشفى سم الأفاعى بالرقية التى تلتها على الاله الأعظم

أما اسم رع الذى وقفت عليه الإلهة وقتئذٍ فمجهول لنا. واذا حكمنا بما لدينا من التعاويذ التى فى المتون المصرية، لم نكد نجد حكمة عميقة مكنونة بين ثناياها. اذ كانت القاعدة ان السحرة يتمتمون ألفاظاً لامعنى لها، ويختارون أصواتاً معينة يقصدون التأثير بغرابتها أو شذوذها

ويرجع عهد كل الفنون السحرية الى أقدم العصور التاريخيـة. ففى

النقوش الدينية القديمة المعروفة عند المؤرخين بمتون الأهرام ، نجد الرقيـة للشفاء من لدغة الحية مثلاً قد انتشرت انتشاراً عظيماً فى ذلك العهد . وفى نهاية الدولة الحديثة عند ما تسرّب الى الديانة الفساد المستمر وصارت عبارة عن تكرار جمل محفوظة ، أصبح للسحر القدح المعلى فى حياة القوم الدينية . فكان كلما أسرع الذبول الى شجرة الدين النضرة، ازداد ايناع الأعشاب الضارة الملتفة حولها من الخزعبلات والخرافات .

يرجع عهد استعمال السحر الى أقدم العصور

ومن أشهر الخرافات ما يلاحظه القوم عن الأيام . اذ كانوا يميلون الى الاعتقاد بأن أياماً معينة من السنة تكون سعيدة بوجه خاص ، وأخرى يرافقها النحس . وفى وقتنا هذا يعتقد الكثيرون أن يوم الجمعة ، وهو يوم صلب المسيح ، يوم شؤم؛ وليس من الصواب أن يبتدىء الانسان فيه سفراً بعيداً أو يشرع فى عمل خطير. وعلى مثل ذلك كان للمصريين أيام معدودة معلمة ، وقعت فيها الحوادث الهامة فى تاريخهم الخرافى

التطير والتفاؤل بالأيام

فنى اليوم الأوّل من شهر امشير رفعت السماء الى أعلى عليين ، أى فيه حدث الخلق الحقيقى للعالم، لذلك كان طبعياً ان يعد هذا اليوم يوماً سعيداً، كما عدّ يوم ٢٧ هاتور ، وهو الذى تمّ فيه الصلح بين ست وحوريس وقسما الأرض بينهما كما جاء فى الخرافة المنسوبة اليهما. أما يوم ١٤ طوبة فعلى العكس كان يوم شؤم، اذ فيه ندبت الأختان ازيس ونفتيس أخاهما أزريس؛ ولذلك لا تُستحبُّ فيه الموسيقى وكل انواع الغناء . وكذلك كان عندهم ايام سود معينة تؤثر فى المستقبل؛ فاعتقدوا ان الطفل التعس الذى يولد يوم ٢٣ بؤونة مصيره ان يقع فريسة للتمساح . وكذلك كل من يولد يوم ٣ كيهك لا بد ان يصم ، وكل من ولد فى العشرين من الشهر عينه مصيره الى العمى . أما من ولد فى ١٩ بؤونه

فهو سعيد الحظ : كُتب لهُ الاّ يموت الاَّ بعد حياة طويلة

وقد اكّد لنا « هيرودوت » كل ذلك بقوله « نَسب المصريون كل شهر وكل يوم لإله خاص وتبينوا مصير كل فرد من يوم ميلاده : يعرفون منهُ كيف يموت وماذا تكون حالته فى الحياة »

ويظهر أن العرافة والتنبؤ بالغيب بالمعنى الحقيقى لم يكن لهما شأن يذكر عند قدماء المصريين . وغاية ما وصل الينا فى هذا الموضوع اشارات عرضية الى « هتفات الآلهة » التى كانت تنبعث من تماثيلهم . ومن الغريب أن هذه الهتفات لم تظهر الا فى عهد انحطاط الديانة المصرية؛ ففى الأعصر المتأخرة بمدينة طيبة ، صار تمثال المعبود أمون « ملك الآلهة الأعظم » هو الواسطة فى الفصل فى الأمور حتى فى مهامّ شئون الدولة . فكان يُحمل فى سفينته على أعناق الكهنة من مسكنه قدس الأقداس . ثم يُلقى عليه رئيس الكهنة او الملك الأسئلة التى يراد الاجابة عليها ، فيجيب الاله بحركات خاصة ، وقد يجيب ايضاً ببعض اصوات او كلمات . ولا شك ان الكهنة كانوا يعرفون كيف يُساعد الاله فى الاجابة؛ فكانوا يتخذون لذلك خيوطاً خفيّة ، بل قد يعدون لذلك آلة ناطقة يخبئونها فى سفينة الاله . وكانت الأجوبة تستنطق بهذه الطريقة عينها فى معبد « زوس امون » الذائع الصيت فى واحة امون « سيوه الحالية » . زار الاسكندر الاكبر هذا المكان المقدس كما هو معلوم للجميع، فوصف بعض شُهادِ عيان من بين الجم الغفير الذين كانوا فى وليجته الكيفية التى أخذ بها رأى تمثال الاله : وذلك انه كان يُحمل فى زورق من خالص الذهب على اعناق الكهنة ، كما كان الحال فى مصر ، ثم يسيرون بالزورق حسب ارادة الإله باشارة منهُ فى اى جهة شاء . وكان يسير فى

هتفات الالهة

هذا الاحتفال جم غفير من النساء والبنات يرتلن آيات المدح ويُمجّدن اسم الاله بأشعار ورثت عن الأجيال الخالية . أما اجابة الاله فكان يمكن قراءتها من خطا الكهنة ، إذ كان القوم يعتقدون أنهم مسيّرون بارشاد الاله المحمول فوق أعناقهم . وكما كان للسحر شأن عظيم فى حياة المصرى الدنيوية كما شاهدنا ، كذلك كان له مكانة خطيرة جداً فى حياته الآخرة ؛ اذ كان القوم يعتقدون أن كل سعادة فى الدار الآخرة ، بل مجرد بقاء الانسان حياً بعد الموت ، يتوقف فى الجملة على معرفة عدد عظيم من الرُّقى والتعاويذ وكيفية تطبيقها . وكأن آراء المصريين عن الحياة بعد الموت مرآة تجلى فيها اخفاقهم فى التغلغل فى درس المسائل الدينية للوصول الى نتيجة منطقية ، كما تجلى فيها تبلبل الأساطير الدينية عندهم . ولا شك أن من لم تجد السفسطة سبيلاً الى عقله يرى عادة فى انقضاء الحياة فجاءة سراً لا يقوي على فهم كنهه ، فهو لا يستطيع أن يتصور كيف ان أحد أقربائه الأعزاء كأبيه أو أمه أو زوجته المحبوبة أو أحد اخوانه قد قضى نحبه فى هذه اللحظة الواحدة ، وفارقه الى الأبد . وما ذلك الا لأن شعوراً قوياً بالحياة يقاوم بكل شدة تلك النظرية القائلة بفنائها وعدم بعثها ثانية على الاطلاق . والواقع ان السلوى الوحيدة التى يمكن الانسان أن ينعم معها بالحياة، هى اعتقاده أن نفسه خالدة بالبعث مع ما يراه من موت اخوانه حوله كل يوم . وهذه هى الطريقة الوحيدة التى لا تنفر الانسان من الموت . وعلى هذا الزعم سعى قدماء المصريين كما سعى غيرهم من الأمم القديمة وكما تسعى أمم العالم الآن ، لفهم أسرار الموت وخباياه الغامضة

شأن السحر فى الآخرة

الحياة بعد الموت

ويجب الاعتراف بأن قدماء المصريين قد اختلفت أفكارهم فى كل زمان ومكان فى كيفية هذا البعث ومكانه، فتضاربت آراؤهم فى هذا الموضوع تضارباً

(١٢)

عظيماً ، واختلطت كأنها كرة من الخيط اشتبكت خيطانها . وكثيراً ما يجد القارئ في متن واحد بل في دعاء واحد أو رقية واحدة المتناقضات جنباً لجنب.

تضارب الاراء في البعث

على أنه لا ينبغي أن ندهش لمثل ذلك كثيراً ، لأننا لو نظرنا في موعظة من المواعظ التي يلقيها قساوسة عصرنا هذا في الجنائز ، وأردنا أن نتفهم من خلال سطورها العقيدة المسيحية عن الآخرة ، لرأينا أمامنا مورداً غزيراً من الآراء التي يجب أن نستخلص منها مرغوبنا ، هذا فضلاً عن أن بعض هذه الآراء قد ورد ذكره على سبيل المجاز

وكان أكثر العقائد رواجاً عن البعث والنشور وأعظمها انتشاراً، بل وأقدمها عهداً عند المصريين العقيدة القائلة بأن الانسان سيحيي بعد الموت حياة

الحياة الآخرة كالحياة الدنيا

أخرى تماثل الحياة الدنيا في جميع أحوالها بدون تغيير في الشكل . فيبقى الرجل والمرأة والشيخ والطفل في آخرتهم كما كانوا في حياتهم، وموطنهم الجبانة ومنزلهم القبر . وهناك يسيطر الرجل على زوجته وأولاده ، ويخدمه خدم من الذكور والأناث . وكذلك يتاح له في حياته الأخرى كل ما كان يجلب عليه الفرح والسرور في دنياه . ومن الضروري له قبل كل شيء أن يأكل ويشرب، فحياته الآخرة موقوفة على ذلك كما توقفت عليه حياته الأولى ؛ وبدونه يعاني ألم الجوع وحرقة العطش . واذا أراد افتداء نفسه من الموت اضطر الى حفظ رمقه بأقبح الأوساخ والاقذار ، وذلك بلا مراء موت ثان

وكما احتاجت الالهة أن تزود بالقرابين من المأكل والمشرب ، كذلك كان الحال مع الأموات . فكان أول واجب على أهل الميت أن يقدموا له كل ما يحتاج . وكان أهل اليسار من الاقدمين يحبسون المال على قبورهم، وينصبون الكهنة لأداء القرابين اللازمة لها . أما الأشياء التي كانت

المحصولات الطبيعية تعجز عن ادائها فكان يسعى الى قضائها بالسحر والصلوات. من ذلك أن أربعة الهة، (وهم المسمون أولاد حوريس) كانوا يقومون بحراسة احشاء الميت وابعاد الجوع والظمأ عنه. وكان من واجب كل مؤمن يمر بقبر أن يذكر صاحبه بخير، وكانت الكتابة التى على كل قبر تتطلب من المارين قراءة تعويذة الترحّم التى تضمن للميت مورداً من المأكولات، وهى كما يأتى: الف أبريق من الجعة والف رغيف من الخبز والف رأس من الماشية والف أوزة لروح فلان

حاجات الميت

وكان الأموات يؤلفون مجتمعاً خاصاً بهم فى مأواهم الأخير وسط الصحراء، وموقعه عادة فى الجهة الغربية على شاطئ النيل الأيسر، ولهم اله خاص يحكمهم. وقد جرت العاده أن يكون اله الجهة هو المسيطر على الموتى أيضاً أى الحاكم «على أولئك الذين يقطنون الغرب». فكما كانت مقاليد أمور الأحياء موكولة اليه، كذلك كانت شؤون الموتى فى رعايته، ويسمح لرعاياه الأموات ان يشاطروه القرابين التى توضع على مائدته. وكان هنالك عدة مدن اختصت الموتى فيها بآلهة معينة. فى مدينة منف كان اله الموتى يدعى «سكريس»؛ كما كان يحرس جباناتها الاله انوبيس الذي ظهر فى شكل ابن آوى. ولما كان من عادة هذا الحيوان الطواف حول الجبانة ليلاً، كأنه الطيف فى الصحراء يحرس القبور ومن فيها فى ظلمات الليل، اعتقد المصريون ان الاله يفعل ذلك أيضاً ممثلاً فى هذه الصورة عينها. غير أنه منذ الأعصر الأولى تضاءلت كل آلهة الموتى حتى صارت كأن لم تكن؛ وحل محلها اله واحد أصبح من ذلك الوقت اله الموتى العام فى كل مصر، وهو «الرئيس الأعظم لأهل الغرب» أزريس. وسنتناول الكلام عليه بعدُ

عالم الموتى وآلهتهم

وكان المصرى يعتقد أن الميت لا يبقى سجيناً فى قبره المظلم بل يكون حراً أثناء النهار ، يغادر قبره الضيق ويتجول كيف شاء على الأرض . ولكن كان لا بد له أن يأخذ الحذر لنفسه مخافة أن ينقض عليه أعداؤه المؤذون من الأفاعى السامة والتماسيح والعقارب ، فكان لزاماً عليه أن يتسلح بالتعاويذ السحرية التى تقيه شر هذه الأعداء

الميت خارج قبره

وقد يصطدم الميت مع الأفراد الذين لا يزالون فى ميعة الشباب، فيحسد الأحياء على سعادتهم ، ويسعى فى جذبهم الى حافة الموت ليصيروا له خلاناً جدداً فى الغرب ؛ وكان يعتقد نجاحه العاجل فى المكان الذى يخيم فيه المرض، لذلك كان ظهور الميت فيه مدعاة للخوف والفزع . فكانت الأم المحزونة القلب تراه ينسل الى البيت بوجه متحول وهى جاثية بجانب فراش طفلها المريض فتخاطبه بكل جسارة قائلة :

ميل الميت لاخذ الاحياء أو ايذائهم

هل أتيت لتُقبل هذا الطفل ؟ أنا لا أسمح لك أن تقبله
هل أتيت لإسكاته ؟ أنا لا أسمح لك بإسكاته
هل أتيت لتلحق به الأذى ؟ أنا لا أسمح لك أن تؤذيه
هل أتيت لتأخذه ؟ أنا لا أسمح لك بأخذه

وكانت الأم تعرف دواء واقياً تعطيه لطفلها ، يدخل فى تركيبه : أعشاب ، وشهد ، وعظام أسماك . فاذا ما رأى الميت هذه العقاقير هلع فرقاً وولى الأدبار

وأحياناً كان الداعى الأكبر الذى يدفع الميت الى وجوده بين الأحياء، هو حب الانتقام منهم ، فكان جل همه أن يصب عليهم كل أنواع المصائب وبخاصة المرض . واتفق أن ضابطاً فقد زوجه ولم يمض طويل زمن حتى لازم

الفراش ، فأخبره أحد السحرة أن مرضه هذا يحتمل أن يكون من عمل الراحلة العزيزة

. فكتب لها رسالة ووضعها فى قبرها . وهى مؤثرة فى بابها وغريبة فى نوعها ، وهاك نصها :

رسالة مريض الى زوجته المتوفاة يستعطفها

أى جرم اقترفت معك حتى أصير فى مثل هذا الشقاء

ما الذى فعلته بك حتى تسلطى علىّ يديك الآن ؟ . . . . .

هل عملت شيئاً أخفيته عنك منذ أصبحت زوجك الى هذا اليوم ؟

لقد صرت زوجتى منذ كنت لا أزال فى ميعة الشباب ، وكنت دائماً بجانبك

ولما تقلبت فى أنواع الوظائف والأعمال المالية بقيت كذلك مخلصاً لك، ولم أتركك أو أدخل على قلبك الحزن

ثم اذكرى أنى حينما كنت ألقى التعليمات على ضباط فرعون من المشاة والمحاربين فى العربات كنت آمرهم أن يقتربوا منك ليصارع الواحد منهم رفيقه أمام عينيك . وكذلك كانوا يحضرون كل شىء طريف ويقدمونه لك

ولما حل بك المرض ذهبت الى رئيس الأطباء فجهز لك الدواء وأدى كل ما ترغبين فيه . ولما أراد فرعون مصر أن أرحل معه الى الجنوب كان قلبي وفكرى معك

وبقيت مدة ثمانية الأشهر التى فارقتك فيها لا يهنأ لى طعام ولا يلذ لى شراب . ولما عدت الى منف (وفى خلال هذه المدة توفيت المرأة) رجوت

فرعون فى العودة اليك ، فجئت هنا ، وحزنت وقتئذٍ أنا وسائر أهلى عليك حزناً شديداً أمام بيتى »

وفى اعتقادى أنه ليس ثمة حاجة الى زيادة شيء على هـذه الصورة الخلابة الغريبة، كما أنه لاحاجة لتصوير فكر المصرى وشعوره بأكثر مما جاء فى هذه الرسالة من الوصف الجلىّ الدقيق

واعتقد المصريون كـكثير من أمم العالم الأخرى (كالاغريق) ان مخلوقاً آخر محسوساً يأوى جسم الانسان ولا يرى فى الحياة الدنيا . تلك هى الروح وتسمى عندهم « باى » . وكانت تلازم الجسم دائماً فى الحياة الدنيا وتفارقه عنـد الموت . وقد ألف المصريون تمثيلها بالطائر مالك الحزين ، ثم مثلوها فى الأعصر المتأخرة بطائر له رأس انسان فيه ملامح المتوفى . وقد نقل اليونان عن المصريين تلك الطيور التى تمثل الروح ، وكثيراً ما ظهرت صورها فى الفن الأغريقى

تمثيل الروح على هيئة طائر

وكان لا ينبغى أن تبقى هذه « الروح الحية » بعيدة عن جسم صاحبها بعد الموت، بل لا بد من تركها حرة لتعود الى حجرة المتوفى وتبقى مع الجسم، وخاصة أثناء الليل حينما تحوم الشياطين حول الجبانات. ولهذا السبب كان من الضرورى للروح أن تستطيع تمييز جثتها من بين الجثث المدفونة بجوارها ، ولتحقيق هذا الغرض بذل المصرى مجهوداً عظيماً

حراسة الروح للجسم

وكان الانسان فى نظر المصريين يشتمل على أجسام نورانية غير الروح، ويتعذر علينا أن نحد باليقين علاقة هذه الأجسام بالروح ، وانما نعرف أن أهمها « الكا » ويرد ذكرها كثيراً فى المتون الدينية . وفى اعتقادى أنها ليست كما يزعم الكثيرون صورة نورانية من الانسان أو مظهراً آخر له، بل

الكا وعملها

هى ملك أو جنية تحرسه . وتولد « الكا » مع الانسان ، وترافقه طول حياته من غير أن ترى . وتحرسه بعد مماته

ذكرنا آنفاً اعتقاد المصريين أن الميت يستطيع مفارقة قبره نهاراً ، بل اعتقدوا أنه يقدر على اكثر من ذلك ، فكان فى قدرته أن يتشكل بأشكال مختلفة حسب رغبته ، فيتحول الى صورة أى مخلوق أراد ، غير أنه كان لزاماً عليه أن يعرف التعويذة السحرية الملائمة للصورة التى يختارها . فكان يحوّل الى بجمة أو صقر أو مالك الحزين أو كبش أو تمساح أو زهرة بمجرد تلاوة التعويذة

تشكل الميت بقوة السحر

ولا مشاحة فى أن علماء اليونان الذين قدموا الى مصر فى الأعصر المتأخرة فى طلب الحكمة من معاهد مصر الدينية وقفوا على هذه الأفكار والآراء . ولا يبعد أن فكرة تقمص الأرواح التى كان يؤمن بها فلاسفة عدة أمثال فيثاغورس وافلاطون يرجع مصدرها الى قدماء المصريين . على اننا اذا بحثنا النظريتين من أصولهما نجد أنهما يختلفان تمام الاختلاف . فكان المصرى يعتقد أن الروح أو المتوفى نفسه يمكنه أن يتشكل بأشكال مختلفة . أما العقيدة الاغريقية فهى كالهندية تقول بأن هذا التقمص سواء أكان فى حيوان طيب أم خبيث لا بد منه للروح بعد الموت ، اذ هو بمثابة تطهير تكفّر به عن الذنوب التى اقترفتها فى الحياة الدنيا

تقمص الارواح فكرة مصرية قديمة

ومع ما يحيط بكل ذلك من الآراء المهوشة فاننا نجد بينها رأياً واحداً ثابتاً وهو العقيدة بأن المتوفى وروحه كانا يسكنان على الأرض . بيد أن هنالك رأياً آخر يرجع الى عهد الفطرة يقول أنهما يسكنان السماء ، ولا غرابة فان الانسان بما عنده من قوة الخيال كان يتخيل أرواح الموتى فى الأجرام السماوية

تضارب الآراء فى مقر الموتى

التى يخطئها العد والساطعة بأنوارها فى القبة الزرقاء العجيبة . أما فرعون فانه كان يمتاز باتخاذ مقعده بعد الموت فى سفينة الشمس، ويسبح بين نجوم السماء ويعيش عيشاً رغداً كاله الأفق (الشمس) نفسه . وعلى مر الأيام أصبحت هذه الميزة شائعة ، فصار فى استطاعة كل انسان بعد الموت أن يرافق إله الشمس خلال سياحاته فى القبة الزرقاء

وهناك رأى آخر مباين جداً لما سبق : وهو أن المتوفى كان يقبل فى السماء مع طائفة الآلهة ويعيش عيشة سعيدة بينهم . غير أن دون الوصول الى ذلك عقبات جمة ، أولها صعوبة المطلع الذى كان يرقى به الميت الى السماء ، فكانوا يتخيلون الميت فى هيئة طائر أو جندب سابح فى الأثير الى السموات العلى . وأحياناً كانوا يتصورونه صاعداً درج سلم ضخم نصب فى الغرب كأنه عمود موصل بين السموات والأرض تحرسه الآلهة والالهات ليل نهار . غير أنه لم يكن فى استطاعة أى فرد أن يضع قدمه على هذا السلم ما لم يعلم التعويذة السحرية الخاصة به . فلا يمكن الميت البدء فى الصعود قبل تلاوتها . ومع ذلك فان السلم نفسه لم يكن ليسلم من الأخطار، اذ قد تزل قدم الميت فيهوى الى الحضيض، اللهم الا اذا أخذت بيده الهة رحيمة تساعده وقت الخطر وترفعه الى أعلى . وهذه كانت كذلك تدعى بألفاظ سحرية . وعند ما يصل المتوفى الى نهاية السلم تفتح له أبواب السماء العظيمة ويدخل فى العالم العلوى . وهذا لا يختلف عن العالم الدنيوى الذى فارقه، فانه يرى منبسطاً أمامه وادياً مستطيلاً يخترقه نهر عريض يتفرع منه عدة ترع وبحيرات . بيد أنه كان لا يزال أمام المتوفى سفر طويل حتى يصل الى مقره الأزلى . فكان محتماً عليه أن يمر بجملة بحيرات ليتطهر بمائها ويجتاز عدة ترع وفروع من النهر . ولما كان المتوفى

كيف يصعد المتوفى الى السماء

لا يملك زورقاً يجتاز به تلك الترع والنهيرات ، كان يضطر بطبيعة الحال أن ينادى عند كل مجاز نوتى الجهة بواسطة تعويذة تشتمل اسمه السرى

وللموتى مقران رئيسيان فى السماء ، وهما « حقل القربان » و « حقل البردى » . وكانوا يقطنون فى هذين المكانين بصفة ملائكة النور ، ويعدّهم الناس مخلوقات أرفع منهم درجة أى كأنصاف الهة . أما فرعون المتوفى فكان لا يزال ذا مكانة عظيمة فى عالم الموتى . فانهُ بعد مماته يصير ملكاً مرة أخرى تحنى الالهة أنفسها الرءوس امامه اجلالاً واحتراماً . وكان يجلس على عرش الملك ويتسلم الصولجان والسيف رمزاً لما لهُ من الجلالة والشرف

مكانة الموتى

يشتغل المتوفى فى حقل البردى بفلاحة الأرض التى هي أحب الحرف في مصر . على ان هذا الفلاح المنعم (المتوفى) يجنى من عمله هذا ثمرة عظيمة تختلف اختلافاً كبيراً عما كان يجنيه فى الحياة الدنيا . فالقمح ينمو الى ارتفاع سبعة اذرع ونصف ، والسنبلة وحدها تربو على ثلاثة اذرع ونصف . فكان الموتى يعدّون الأرض ويبذرون البذر ويضمون الحصاد ويخزنونه ، ثم يلهون بلعب النرد فى نهاية اليوم بعد الفراغ من العمل تحت ظلال شجر الجميز

أشغالهم فى الآخرة

وكان المصريون أيضاً يعتقدون بوجود عالم سفلى تسكنه الموتى ، وهى عقيدة ثالثة تتضارب مع العقيدتين السالفتين القائلتين بوجود مأوى الموتى فى الأرض والسماء . وذلك انهم اعتقدوا ان تحت العالم المستوى عالماً آخر يسمى « دوات » ، هو كمصر ، يخترقهُ نهر وعلى كلتا حافتيه ممرات طويلة وكهوف عميقة يتخذها الموتى مساكن لهم . فترى في خلال النهار قاحلة قفراء يخيم عليها الحزن والكآبة ، حتى اذا ما حلّ الظلام ونزلت الشمس فى الغرب خلف تلك الجبال الخرافية (منو) سطع نورها على الموتى . وعندئذ يشاهدون بهاء نور

العالم السفلى

رع وجلاله . ويسبّح الموتى الذين فى حجراتهم وكهوفهم بحمد الشمس ، وعند ما يشاهدونها تفتح عيونهم وتمتلئ قلوبهم غبطة وسروراً . وكذلك يصيحون فرحاً عند ما يرون جرم الشمس فى أفقهم

وقد وُصفت سياحة الشمس الليلية فى العالم السفلى وصفاً بديعاً مسهباً فى الأعصر المتأخرة ، وأضيف اليه كل الزيادات التى كانت تمتاز بها معتقدات البيئات المختلفة فى مأوى الأموات الأزلى : وذلك انهم كانوا يعتقدون أنه يجرى فى وسط العالم السفلى نيل سفلى ، يسبح فيه اله الشمس ذو رأس الكبش يحيط به حاشية كبيرة من الآلهة ، ويقطن على ضفتى هذا النهر الجن والشياطين وكل أنواع المخلوقات الشنيعة التى كانت تحيّى إله الشمس وتدرأ عنه أعداءه . وكان العالم السفلى مقسماً على مدى طوله الى اثنى عشر اقليماً ،

سياحة الشمس فى العالم السفلى

وهذه الأقسام مقابلة لساعات الليل الاثنتى عشرة . ويفصل الاقاليم الواحد من الآخر بوابة ضخمة تحرسها ثعابين غلاظ . وعلى مقربة من كل مدخل ثعبانان ينفثان ناراً حامية والهان لحماية البوابة . وكان لا بد لاله الشمس من معرفة أسماء هذه الثعابين والشياطين المختلفة ، اذ كانت لا تغادر تلك البوابات حتى يفوه بأسمائها ، واذ ذاك تفتح البوابات ويمر زورق الشمس الى اقليم جديد

أقاليم العالم السفلى وحراستها

وكانوا يعتقدون ان عامة البشر يسكنون فى العالم السفلى على هيئة أشباح ، يحيّون اله الشمس ، ويجرّون زورقه أحياناً فى ماء النهر الضحضاح كما يحدث ذلك عند انخفاض نيل مصر . أما فرعون المتوفى فكان يتخذ مقعده مع اله الشمس فى زورقه ، بل الواقع أنه كان يصبح مثله ، واذ ذاك يسمح له بالاشتراك معه فى سياحته الليلية العجيبة ، على شرط أن يكون على علم بأسماء الشياطين والثعابين السرية . ولأجل أن يزوّد بهذه المعلومات جرت العادة فى عهد الدولة

الحديثة أن ينقش على جدران المقبرة بيان موضح بالصورة شامل لكل ما في العالم السفلي. وقد قصر ذلك في بادئ الأمر على الملك، ثم قلده دهماء القوم فيما بعد، حتى سرى الاعتقاد أن كل ميت يمكنه أن يرافق اله الشمس في سياحته الليلية أو يقوم بها نفسه كأنه اله الشمس، بشرط أن يكون مسلحاً بالتعاويذ السحرية الخاصة بذلك، وأن يكون معه في قبره وصف دقيق للعالم السفلي

سياحة الملك ثم الرعية مع اله الشمس

على أن تلك الأفكار التي جمعت بين السهولة والتعقيد والبساطة والتنميق ما لبثت أن تأثرت وزاد ما فيها من الارتباك من جراء انتشار العقيدة الخاصة بالاله أزريس. ولا إخال القارئ الا ذاكراً أن الآله أزريس قتل بيد أخيه ست الشقي، ثم قام ابنه حوريس يثأر له، فهزم الاله ست، وافلح في ارجاع أبيه الى الحياة ثانية. وقد حدث أثناء العراك الذي نشب بين هذين الالهين أن اقتلع ست عين حوريس فقدمها هذا لابيه، فكانت هذه الهدية العظيمة أكبر عامل في أحياء أزريس. على أن حوريس اضطر الى استعمال عدد من التعاويذ والطقوس ليتسنى له أحياء والده تماماً. وفي نهاية الأمر عاد أزريس الى الحياة، وأصبح مالكاً لكل قواه الجثمانية، وفي قدرته أن يتكلم ويأكل ويشرب. وقد تربع على عرش الملك ثانية، غير أن سلطانه لم يقتصر هذه المرة على العالم الدنيوي بل امتد نفوذه على «أهل الغرب»، أي أنه أصبح ملكاً على أهل النعيم من الأموات

الشجار بين ست وحوريس وما نتج عنه

وهاك أنشودة عتيقة لأزريس في هذا الصدد

يا أزريس، ها هو حوريس قد أتى، وهو يضمك بين ذراعيه، وقد جعل تحوت (اله القمر) يطرد رفاق ست ويأتي بهم أسرى أمامك. وهو الذي

جعل قلب ست يرتعد أمامك فرقاً ، لأنك أعظم منه ..... ان إله الأرض « جب » يشاهد جلالك ، ويحلك فى مكانك ، ويحضر أختيك ازيس ونفتيس الى جانبك (اذ هو والد ازريس ايضاً) . أما حوريس فيجعل الآلهة ينضمون اليك ، ويرافقونك ، ولا يبتعدون عنك ؛ وكذلك يجعل الآلهة يطلقون سراحك . ويضع جب قدمه فوق رأس عدوك الذى يرتعد خوفاً منك . ويضرب ابنك حوريس « ست » ويأخذ منه ثانية عينه (التى كان قد اقتلعها ست) ويقدمها اليك حتى تكون قوىّ البطش بها أمام الملائكة (أى الموتى) ويجعلك حوريس تهزم أعداءك .... ويهزم حوريس ست ويرمى به تحتك فيحملك وهو يزلزل فرقاً كما تزلزل الأرض »

أنشودة أزريس

والواقع ان تاريخ أزريس الخرافى كان يعاد باستمرار على الأرض مع كل فرعون من الفراعنة : وذلك ان فرعون كان يعتبر نفسه قد حكم الناس وأسعد رعاياه ، ثم وافاه الموت كما وافى أزريس على يد أخيه ست . وكان يرى فى ابنه وخليفته على الأرض منتقماً له ، من واجبه كحوريس أن يعيد والده الى الحياة ثانية . ويسهل عليه القيام بذلك اذا استعمل التعاويذ والطقوس الدينية القديمة التى استعملها حوريس ؛ وبذلك يفوز فرعون المتوفى على كل أعدائه ويصير هو نفسه أزريس وترفعه الآلهة على عرش الملك فى عالم الموتى

فرعون وخليفته كازريس وحوريس

أما مقر ملك أزريس فى الآخرة فلم يعرفه قدماء المصريين أنفسهم بالتحقيق ؛ فقد ظنوا أولاً انه فى جهة معينة لم يُعرف موضعها باليقين ، ثم تصوروا أخيرا انه فى الغرب على وجه عام ، كما اعتقدوا أيضاً انه فى السماء فى حقول أهل النعيم ، أو فى « دوات » وهى العالم السفلى تحت الأرض

مقر ازريس

وكانت قصة أزريس رائجة جداً بين الناس منذ العصور السحيقة . وأخذوا

البعث كأزريس

يعتقدون بأن البعث ثانية كأزريس غير مقصور على فرعون وحده، بل هو مصير جميع البشر؛ ولذلك أصبحت الطقوس الدينية التى كانت تقام للإله وخليفته فى الأرض (فرعون)، ارثاً مشاعاً لكل متوفى؛ وصار فى الامكان جعل كل انسان أزريساً بواسطة التعاويذ الخاصة، فينتقل بذلك الى حياة أبدية سعيدة

بيد أننا نغمط قدماء المصريين حقهم ونحط من قدرهم الخلقى اذا تخيلنا أن مصير الانسان بعد الموت كان فى اعتقادهم موقوفاً على معرفة التعاويذ السحرية المختلفة وتلاوتها . اذ الواقع أننا نجد حتى فى أقدم المتون التى يرجع عهدها الى العصور الأولى انه كان يتطلب من المتوفى أمور أرقى من ذلك بكثير : فلا بد أن يكون قد عاش على الأرض عيشة صلاح وعفة، وكذلك يجب اذا أراد أن ينعم مثل أزريس أن يوجد « صادقاً » بعد الموت . وفى ذلك أيضاً تقلّد الحوادث التى جرت للآلهة كما وردت فى أساطيرهم

الاخلاق الفاضلة وضرورتها للمتوفى

من ذلك أن الشجار الذى قام فى عين شمس بين أزريس وست فُصل فيه بواسطة محكمة، وقد خرج منها ازريس منتصراً، وأعلن على رءوس الاشهاد أنه صادق . فأصبح لزاماً على كل انسان أن يقدم نفسه الى محكمة مقدسة قبل أن يدخل العالم الغربى. وكانت هذه المحكمة تعقد جلساتها فى « قاعة العدل » ويرأسها أزريس نفسه ، وبجانبه اثنان واربعون شيطاناً رجيماً ينبعث من وجوههم عوامل الخوف والفزع : اذ كانوا يمثلون بجسم انسان رأسه رأس صقر أو عقاب أو سبع أو كبش أو حيوان آخر وفى يد كل منهم سكين . وكذلك كانت أسماؤهم مخيفة فمنها « ملتهم الدم » و « عين اللهيب » و « كاسر العظام » و « ساق النار » و « لاوى الرأس » و « آكل الظل » الخ

محكمة أزريس

وكان من المحتم على المتوفى أن ينفي نفياً قاطعاً أمام كل من هؤلاء القضاة انه ارتكب أى جريمة ، فيقول : « أنا لم أفعل ما تمقته الآلهة ، انا لم أترك احداً يقاسي مرارة الجوع ، انا لم احضّ على القتل ، أنا لم اسرق القرابين التى قدمت للآلهة ، انا لم أقتل » . فاذا كان في قدرة المتوفي ان ينفي عن نفسه هذه الخطايا وهو مرتاح الضمير ، يقوده الاله انبيس عندئذ الى القاعة التي يجلس فيها ازريس . ثم يوضع قلبه في كفة ميزان عظيم وفي الكفة الأخرى توضع علامة العدل ، ويسجل الاله تحوت براءته من الخطايا . غير أنه كان يجلس بجانب الميزان فرس بحر هائل مستعد لالتهام القلب اذا خف وزنه . فاذا اجتاز المتوفي هذا الحساب بسلام قدّمه حوريس الى أزريس كما يقدم أحد عمال القصر الملكي فرداً من الرعايا الى حضرة الملك . فيسمح له ازريس ان يدخل في عالم النعيم ويصير من اتباع الاله الأعظم

الحساب

وقد جمعت كل الحكم الخاصة بالحياة بعد الموت من أول عصور التاريخ المصرى ؛ وأقدم هذه المجموعات هى « متون الأهرام » التى يرجع تاريخ بعض فصولها الى ما قبل انبثاق فجر التاريخ . وقد أطلق عليها هذا الاسم لأننا وقفنا على أقدم صورة لها من أهرام ملوك نهاية الأسرة الخامسة وملوك الأسرة السادسة . وفي عهد الدولة الوسطى ظهرت مجموعة أخرى تسمى « كتاب الموتى » ، وكانت كثيرة الانتشار جداً

متون الاهرام وكتاب الموتى

وقد وقفنا على وصف سياحة الشمس أثناء ساعات الليل الاثنتى عشرة من « كتاب ما في العالم السفلى » ومن « كتاب البوابات » ومن كتابات أخرى ، وما ذلك كله الاّ جزء ضئيل من الآداب الواسعة الخاصة بالموتى عند المصريين . وليس من مقاصد هذا الكتاب الكلام على جميع الكتابات التى

وصف سياحة الشمس

من هذا النوع أو شرح النظريات التى تشتمل عليها، اذ ان هذا يبعدنا عن الغرض المقصود . أضف الى ذلك أنى اذا أرخيت العنان لنفسى فى هذا الموضوع أخشى أنه عما قليل يستولى عليكم الملل والسآمة

ولا جدال اننا نرى فى كل مكان آثاراً تنبئ عن الجهود التى كان يبذلها المصريون لضمان الحياة بعد الموت ، وتهيئة كل الأسباب لحياة الروح ، غير أنه لا ينتج من ذلك ما ذاع من أن المصريين كانوا يحتقرون الحياة الدنيا ، وأنه لم يكن لهم هم مدة حياتهم الا الاستعداد للآخرة ، اذ الواقع على عكس ذلك . فأنه قل أن نمر على شيء فى شعور القوم وأفكارهم يغلب فيه الميل الى الموت ، ولذلك يكون من الشواذ اذا عثرنا على مثال كالآتى حيث نجد فرداً راغبا عن الحياة ومرحباً بالموت كأنه صديق : —

المصرى يحب الحياة الدنيا

« يقف الموت اليوم أمامى كما يبرأ المريض من سقامه، أوكما يخرج الإنسان ساعياً على قدميه بعد مرض أقعده، يقف الموت اليوم أمامى كالرائحة الزكية، أو كما يجلس الإنسان فى يوم رق نسيمه تحت قلاع المركب

يقف الموت اليوم أمامى كأنه مجرى من الماء أو كما يعود الانسان الى وطنه من سفينة حربية

يقف الموت أمامى اليوم كرجل اشتاق الى رؤية بيته بعد أن غاب عنه سنين عدة فى الأسر »

مثال فردى لكراهة الحي

ثم ترى هذا الرجل بعينه يهنئ من تخلص من الحياة الدنيا وبلغ السعادة بالموت اذ يقول :

« ان من مات سيصير فى دار الآخرة الهاً حياً يعاقب من ارتكب ذنوباً .

ان من مات سيقف فى قارب الشمس ويأخذ أحسن ما لذ وطاب فى المعابد »

غير أننا نؤكد مرة أخرى ان هـذه الأمثلة المنبعثة عن عواطف لا كتئاب لسيت سوى أمثلة فردية لا يعتد بها . فان عامة الناس فى مصر كما فى غيرها من البلدان « يحزنون عند ما يفكرون فى الدفن، وهو عندهم أمر تُذرِف من أجله العين الدموع ويكتئب له القلب »

وكذلك كان يحزنهم ان « الموت ينتزع الفرد من بيتـه ويرمى به على الروابى . فلن يعود ثانية ليشاهد الشمس » . وانه مهما شيد الانسان قبراً ثميناً من الجرانيت والحجر الجيرى وجهزه بكل ما يلزمه ، فان ما على مائدة قربانه سيكون أقل ثلاث مرات مما على مائدة من كان بلا مأوى ، أو من أنهكهم الضنى فماتوا فى الطريق ولم يتركوا خلفاً وراءهم

الحض على التمتع بالحياة

لذلك لم يكن أمام الانسان الا شيء واحد يفعله : « يتمتع بالحياة ويقتفى سبل السرور ويتناسى الهموم » ، اذ لا حزن ولا ضحايا ولا طقوس يمكنها أن تعيد الى الميت ثانية متاع الحياة الدنيا

وانا نجد هذا المغزى فى انشودة أخرى قديمة مشهورة جداً كانت تنشد فى الأعياد المأتمية :

« ان الالهة (أى الملوك) الذين عاشوا فى الأعصر الخالية يضطجعون الآن فى أهرامهم . وكذلك الأشراف والحكماء مدفونون فى أهرامهم
وكذلك الأشراف والحكماء مدفونون فى اهرامهم

اما الذين شادوا لأنفسهم بيوتاً فقد اصبحت كأن لم تكن واخالك ترى ما اصابها . . . . . ولم يأت احد من قبلهم ليخبرنا ماذا حدث فى امرهم

أو يذكر لنا كيف حالهم حتى تطمئن قلوبنا . لذلك يجب عليك أن لا تنسى أن تكرم نفسك ، وتمتع فؤادك وتتبع هواه ما دمت حياً ، الى أن تذهب الى المكان الذى ذهبوا اليه . فعطر رأسك ، وارتد أحسن الملابس ، ودلك جسمك بأعجب الروائح الالهية

جمل نفسك وابرز فى أحسن وأبهى منظر يمكنك أن تظهر فيه . ولا تجعل للكآبة سبيلاً الى قلبك

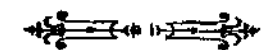
اتبع ما يمليه عليك قلبك وسرور نفسك ما دمت على قيد الحياة .

لا تكدر قلبك الى أن يوافيك يوم الحزن

ولا مشاحة أن من وقفت حركة قلبه لا يسمع حزنك، وكذلك من يرقد فى مخدعه الأزلى لا يدرك عويلك

لذلك اجعل لك يوم سرور وكن فيه طلق المحيا ، فإن الانسان لا يأخذ متاعه معه فى الآخرة ، بل أن من مات لا يعود الى هذه الدار ثانية »

فترى أيها القارئ أن حب الحياة الدنيا، رغم كل ما كان يبذل من ضروب السحر وأفانين التنجيم والتخيلات فى سبيل الحياة بعد الموت ، لم تنطفئ جذوته حتى عند المصريين؛ فانهم مع مبالغتهم فى الاعتناء لإتقان عدتهم للحياة الآخرة لم ينسوا ذلك الشعور السليم القائل بأن « الحياة أحسن شىء بين الأشياء الحسنة »



المحاضرة الخامسة

القبور والدفن

الديانة المصرية خارج مصر

تكلمت بإيجاز فى محاضرتى الأخيرة عن معتقدات المصريين فى أشياء الآخرة ، وعن آرائهم فى الحياة بعد الموت . ويجدر بنا الآن أن نلاحظ كيف أن هذه المعتقدات كان لها أثر فعال جداً فى كل عادات القوم المأتمية .

أثر المعتقدات فى العادات المأتمية

فان من نتائجها تلك القبور المكينة الأركان الضخمة البنيان التى لا تزال موضع اعجاب العالم الى يومنا هذا ؛ وكذلك العناية بتحنيط الأجسام ، والعطايا الوفيرة التى كانت توضع مع المتوفى فى مضجعه الأبدى . وسيكون بحثنا هنا فى دائرة عادات كانت بطبيعة الحال عرضة لتغيير عظيم فى انتقالها من قرن الى قرن ومن اقليم الى اقليم . فلم تكن العادات المأتمية فى الدولة القديمة كما كانت فى أيام الاسكندر الأكبر . ولم تكن يحتفل بها فى الدلتا بالطريقة التى كان يحتفل بها فى اقليم الشلال « سيينى » الواقعة فى جنوب مصر الأقصى

وغرضى الآن أن ألفت نظركم الى بعض نقط فى هذا الموضوع الذى يعتبر أعظم فروع العلوم المصرية إمتاعاً ، حتى يتسنى لى شرح الطريقة العملية التى بها أبرز المصريون معتقداتهم عن الآخرة

كان أول غرض يرمى اليه المصريون أن يحافظوا على الجثة فى مضجعها الأخير ، وذلك باعداد مخدع حقيقى للمتوفى . وكان ماء الفيضان اكثر ما يخافونه ، ويعتبرونه أكبر عدو للقبور بعد اللصوص والنشالين الذين كانوا يتخذون المقابر والجبانات مسرحاً للنهب والسلب . لذلك كان من أهم

العناية باختيار المدفن وموقعه

الأمور لديهم أن يتحاشوا دفن الميت فى بقعة رطبة ، فيختاروا للمقبرة المرتفعات والآكام فى أراضى الصحراء الرملية أو الصخرية . وكثيراً ما يقال أن قدماء المصريين لم يدفنوا موتاهم على الشاطئ الغربى للنيل الاّ لأنه الأقليم الذى تغرب فيه الشمس . وفى اعتقادى أن هذا رأى غير صحيح . حقاً كانت الجبانات العظيمة فى مدن منف والعرابة المدفونة وطيبة وسيينى (اسوان) تقع فى جهة « امنتت » أو أقليم الغرب . غير أنها فى مدن أخرى كتل العمارنة وأخميم كانت تقع على الشاطئ الشرقى ، شرقى مدينة الأحياء . ومن ذلك يتضح جلياً أن أحوال البيئة كان لها الدخل الأكبر فى انتخاب المضجع الأزلى للمتوفى حتى يكون أوفق مكان وأبعده عن الخطر ، واذا رأينا فى المتون المصرية ان كلمة « الغرب » مرادفة لكلمة جبانة ، وأن الموتى يعبر عنهم « بأهل الغرب » ، فمن المحقق ان هذه التعابير اخترعت أولاً فى مدينة ما ، ويحتمل أن تكون العرابة المدفونة ، التى اتفق قديماً أن جماعة الأموات كانوا مدفونين فى هذه الجهة الخاصة منها

أقدم ما عرف من القبور

وأقدم ما عرف لدنيا من القبور حفر مستطيلة ساذجة ، كانت توضع الجثة فى الحفرة ويهال عليها الرمل ، ثم يجمع فوق ذلك كومة صغيرة من الرمل والأحجار كما تفعل الأعراب الى يومنا هذا . ولا يعزب عن الذهن أن الملك كان لا يكتفى بقبر ساذج مثل هذا . فكما أنه كان يُرى فى حياته مشرفاً على رعاياه كالمارد بين الاقزام ، كذلك كان من المنتظر أن يكون قبره أضخم حجماً وأعلى بنياناً من قبور رعاياه . لذلك كان يبتدئ وهو على قيد الحياة فى اعداد قبر لهُ رفيع البنيان رائع المنظر*. وكان قبر الملك فى أول الأمر

* يقع قبر مينا أول ملك مصرى معروف فى التاريخ بالقرب من بلدة نقاده الحالية وهى قريبة من العرابة المدفونة (Zectschrifs) عدد ٣٦ سنة ١٨٩٨

قبر الملك ومشتملاته

بناء ضخماً من اللبن مستطيل الشكل يشتمل داخله على عدة حجرات لا يمكن الوصول اليها من الخارج ، تدفن جثة الملك فى احداها ويخصص الباقى للقرابين التى تدفن معه . وكان يحلى ظاهر جدران القبر بحفر أبواب كاذبة عليها ، اعتقد القوم أنهُ بواسطتها يستطيع الملك المتوفى ترك قبره عند ما يريد ثم يرجع اليه ثانية . وعلاوة على ذلك كانت هذه الأبواب الوهمية تستعمل كوصل للقرابين التى تقدم للمتوفى ، والتى يضمها فناء مسور أمام الباب الوهمى

وكان قبر الملك يشتمل فضلاً عن ذلك على لحود صغيرة عدة لنسائه وأقزامه بل وكلابه ، وكانت هذه تدفن فى اللحظة التى يدفن فيها فرعون .

ما يدفن مع الملك

ولا مبالغة اذا قررنا أنها كانت ندماءه وخلانه فى حياته ، وأنها كانت تذبح وقت جنازته حتى لا يفرق الموت بينها و بينهُ ، وبذلك يستطيع أن يستمر فى التمتع بها فى حياته الآخرة . ولما ارتقت عواطف الانسان وتهذبت طباعه على مرّ الايام حذفت هذه القرابين البشرية من الطقوس المأتمية ، واكتفى بوضع تماثيل اخدان الملك وجلسائه أو صورهم فى قبره بدلاً من أشخاصهم

وعلى مر الأيام ارتقت هذه القبور الساذجة المشيدة من اللبن تدريجاً حتى أخذت شكلا هرميا . وقد بقى هذا الشكل خصيصاً بالمدافن الفرعونية

الهرم وأصله

نحو ألف عام ، ولا يزال الى يومنا هذا رمزاً ودليلاً على وادى النيل . ومهما كان من شأن الهرم ، حتى هرم خوفو الذى يبلغ علوه ٤٨٠ قدماً ويقارب ارتفاعه أعلى ما صنعهُ الانسان ، فانهُ لا يخرج عن كونهِ كومة مأتميـة أقيمت فوق قبر الملك تغالى الانسان فى تضخيمها والتأنق فى وضعها . وقد جرت العادة أن يشتمل القبر على حجرة واحـدة أو أكثر تحت الأرض ، الاّ أنها كانت أحيانًا تبنى فى جوف الهرم نفسه ويتوصل اليها بممر ضيق ، يعتنى بسده

بعد الدفن . أما حجرات الهرم الداخليـة التى كانت تخصص واحدة منها لتابوت الميت ، فكانت فى الأصل عارية من كل زينة . وقد بقيت كذلك حتى أواخر الاسرة الخامسة أى حوالى عام ٢٥٤٠ ق . م. ومن وقتئذٍ ابتدأت الفراعنة تنقش على جدرانها متوناً دينية خاصة بالحياة بعد الموت. وهذه النقوش هى المعروفة بمتون الأهرام ، وقد تكلمت عنها فى محاضرتى السابقة . وتعتبر أهم مصادر لمعلوماتنا عن الديانة المصرية فى نشأتها الأولى . وكان ينقص الأهرام المكان الذى تقدم فيهِ القرابين للروح ، مع أنهُ كان ضمن محتويات أقدم القبور الملكية

متون الاهرام

وقد سد فرعون هذا النقص بتشييد معبد خاص لروحه فى الجهـة الشرقية من الهرم . وكان هذا المعبد يزين كمعابد الآلهة بالـكتابات والنقوش البارزة . والظاهر أن تماثيل الملك كانت توضع فى حجر خاصة بها فى هذا المعبـد

معبد الهرم

ولما رأى عظماء الدولة الملوك يشيدون الاهرام العظيمة ، لم يكتفوا بالمقابر الساذجة التى كانوا يشيدونها لأنفسهم ، وأخذوا يقيمون لجثثهم مقابر أمتن منها بنياناً . وكان نموذجهم أيضاً القبر الساذج المحاط بكومة : وذلك أنهم كانوا ينحتون فى أصل الصخر حجرة تحت الأَرض، يوضع فيها التابوت ، ويتوصل اليها ببئر عمودى يبلغ عمقه أحياناً نحو ٥٠ قدماً ، ثم يقام فوق هذه الحجرة بناء مستطيل أملس من الحجارة أو اللبن . ويطلق المصريون الحاليون على كل المقابر التى من هذا النوع لفظة مسطبة، لتشابهها بالمسطبة التى تبنى أمام المنازل فى الأرياف . وفى الجانب الشرقى من المسطبة يشاهد الباب الوهمى الذى اعتقد القوم أن الميت يخرج ويدخل منهُ . وامام هذا الباب كانت تقدم

المسطبه

القرابين على مائدة منخفضة من الحجر الجيرى ، وكذلك كانت تتلى الصلوات ترحماً على المتوفى . وكثيراً ما حول هذا الباب الوهمى الى حجرة صغيرة يوضع الباب الوهمى فى جدارها الخلفى . أما فى العصور المتأخرة فكانوا يشيدون سلسلة حجرات من هذا النوع فى داخل المسطبة

وكانت جدران هذه الحجرات تغطى بالصور والنقوش كلما وجد الى ذلك سبيل . والقاعدة أن هذه النقوش تتعلق بالقبر أما القرابين فخاصة بالمتوفى . الاّ أن النقوش كانت تشتمل أحياناً على صور كل الأشياء التى كان يعزّها المتوفى على الأرض ، وعلى كل الأعمال التى كان يميل اليها ميلاً خاصاً وهو على قيد الحياة . ولا مشاحة ان المصرى كان يخيل اليه ان كل هذه الأشياء المرسومة تبقى بقوة السحر ، وان فى مقدور المتوفى أن يتمتع تمتعاً فعلياً بكل ما هو ممثل بالرسم على جدران حجرته . فهنا نرى كيف يجلس المتوفى على المائدة صحبة أفراد اسرته غالباً وامامه الطعام والشراب بوفرة ، وليس عليه الاّ أن يبسط ذراعهُ ويأخذ ما تشتهى نفسه . وكذلك يُرى منقوشاً على الجدار كشوف مطولة تشتمل على كل ضروريات الحياة كالخبز والكعك والنبيذ والجعة واللحم والخضر والفاكهة وكل ما كانت تتطلبه نفس اى مصرى قديم . وفي مناظر أخرى نرى الرجال والنسوة من الفلاحين يحملون كل أنواع الطعام الى قبر المتوفي . أو نرى المتوفي نفسه يرقب الصيد في الصحراء أو يفحص قطعان الماشية التى كان لزاماً على بعض القرى أن تقدمها قرباناً للموتى . وفي صور عدة نري الضحايا ذاتها : فنرى كيف تذبح الماشية ويسلخ جلدها وكيف يقطع القصاب الحيوان إرباً وهو يكبر ويهلل بألفاظ منقوشة على الجدار ، وكيف يحمل الخدم أفخاذ الحيوان وأطيب أجزائها

نقوش القبر وأهميتها

الى القبر . وبذلك يتمثل أمامنا صفحة من حياة المصرى بشكل حي واضح، حتى أنه بعد مرور تلك الآلاف من السنين يتسنى للفرد الذى يمكنه مشاركة القوم في عواطفهم ومزج روحه بروحهم ان يشعر بأعظم لذة وسرور من هذه المناظر

وفضلاً عن هذه الحجر التى كان يسمح لأقارب المتوفى بدخولها ، كانت المساطب الضخمة البنيان تشتمل على حجرة لا يمكن الوصول اليها، وهى ما يطلق عليه الآن اسم « سرداب » . وكان ينصب فيها تمثال المتوفى وبرفقته زوجته وأولاده غالباً ، وتعتبر الحجرة الخاصة للمتوفى فى بيته الأزلى . وكان يفصل السرداب عن الحجرة جدار ، وكثيراً ما كان يوصل بين الاثنين فتحة صغيرة ليتسنى للمتوفى أن يشترك فى القرابين التى كانت تقدم أمام الباب الوهمى ، ويسمع الصلوات تتلى ، ويتنسم عبير البخور

السرداب

وفضلاً عن الأهرام والمساطب التى أخذ يقلدها جم غفير من السكان فيما بعد بطريقة سبق شرحها ، ابتدع الفراعنة فى أواخر الدولة القديمة حوالى ٢٢٠٠ ق م شكلا آخر من القبور يدعى هيبوجيم أو «القبر الصخرى» . حقاً قد نحت قبل ذلك الوقت فى عهد الدولة القديمة مقابر فى جوانب الجبال ، غير أنها الآن أخذت شكلاً معيناً ينطبق عليه وعلى معابد الالهة نموذج البيت العادى . فكانت المقبرة تشتمل أولاً على ساحة مكشوفة يتلوها ممر منحوت فى أصل الجبل يرتكز سقفه على عمد . ثم يتلو ذلك قاعة كبيرة منحوتة كذلك في اصل الصخر ، ومحمول سقفها على عمد ايضاً . ثم ينتهى القبر بحجرة صغيرة تشتمل على تمثال المتوفى . ولا شك أن من يذكر منكم تصميم المعبد المصرى يرى فى الحال أن لا فرق مطلقاً فى الشكل بين « بيت الاله »

القبر الصخرى

و « بيت المتوفى » . أما التابوت الذى يحتوى على الجثة فكان يوضع فى حجرة تحت الأرض يصل الانسان اليها ببئر من قاعة العمد

وقد حدث تغيير عظيم فى شكل مقابر الملوك فى أوائل الدولة الحديثة حوالى عام ١٥٠٠ ق م . فقد كانت العادة المتبعة الى ذلك العهد أن يبنى فرعون لنفسه ضريحاً هرمى الشكل قائماً بذاته فى وسط الجبانة . أما الآن فقد أخذ فرعون يتخذ مثوى لمومياته بنحت عدة حجرات فى جهة الجبل يصل اليها الانسان بممر طويل . وقد كان ارتفاع الصخرة نفسه يقوم مقام الكومة المأتمية (الهرم) التى كانت تقام فوق مضجع فرعون الأزلى . ولم يعُد الملك يدفن وسط قبور رعاياه بل على مسافة فى واد منفرد من وديان سلسلة جبال لوبيا يكتنفهُ صخور قاحلة جرداء . ولما كان هذا الوادى ضيقاً جدًّا صار من المتعذر بناء معبد للمتوفى أمام قبره ، ولذلك كان لزاماً فصل المعبد عن المقبرة ، فأصبح فرعون يشيد المعبد فى السهل المجاور لهذا الوادى . وقد حفظت لنا الأيام الى عصرنا هذا هذه المقابر الصخرية الملكية وما الحق بها من المعابد التى كانت أحياناً آية فى الفخامة والأبهة ، وهى قائمة على ضفة النيل الغربية على مقربة من طيبة حاضرة الدولة قديماً

تغيير فى مقابر الملوك

معابد القبور الصخرية

ولا يبعد ان المعابد التى شيدها الملوك تخليداً لذكرهم كانت تضارع فى معدَّاتها معابد الالهة فى ذلك الحين . أما حجر قربان عامة الناس فيغلب على الظن أنها لم تشتمل على معدَّات تذكر ، فكان غاية ما تحتوى عليه هذه المعابد الصغيرة (حجر القربان) من الأثاث مائدتى قربان يقدم عليهما طعام المتوفى ، وبضعة أباريق وأوان من الجرانيت تشتمل على الشراب المقرّب . وأحياناً تنصب بضع مسلات صغيرة حجرية أمام الباب الوهمى تشبهاً

محتويات المعابد الصغيرة

بالمسلات الضخمة التى كانت تقام أمام بوابات المعابد الكبيرة. أما الضريح نفسه، أى الحجرة المنحوتة فى جوف الارض وهى التى يضطجع فيها المتوفى، فكان أوفر من ذلك عدة وأبهى رونقاً. اذ كان يكتنف الجثة فى مخدعها عدد وفير من التحف، الغرض منها تخفيف مصاب الميت واعداد وسائل السعادة لهُ فى الحياة المقبلة

محتويات الضريح

وكانت الجثة تدفن فى أقدم عصور التاريخ على هيئة القرفصاء، ويداها موضوعتان على مقدمة الوجه. وكانت العادة المتبعة أن توضع رأس المتوفى فى الجهة الشمالية، بحيث يولى وجهه شطر المشرق حتى يرى الشمس المشرقة. أما الجثة فكانت أحياناً تلف فى نسيج من الكتان، أو توضع فى تابوت ساذج من الخشب جرت العادة أن يترك فى القبر بدون غطاء قط. وأما القرابين التى توضع مع المتوفى فكان القصد منها تغذيته. وتشتمل على أباريق من الجعة وأوان أخرى تحتوى الآن على رماد يحتمل أنهُ بقايا طعام محروق. وفضلا عن ذلك كان القبر يشتمل على أوان حجرية فيها كل أنواع الدهان، وعلى أطباق رقيقة غريبة الشكل كان يستعملها المتوفى لوضع ألوان تجميل الوجه فى آخرته كما كان يفعل فى حياته. كذلك كان المتوفى يسلح بكل أنواع الأسلحة ليدرأ بها عن نفسه غائلة الأعداء، ويُمد بالتعاويذ للوقاية من شر الشياطين الرجيمة.

وضع الجثة فى القبر وعدتها

وفى عهد الدولة القديمة، أى فى عصر بناة الأهرام، أخذت طريقة دفن الموتى شكلاً آخر جديداً، فلم يعد يوضع الميت فى قبره على شكل القرفصاء، بل أصبح يوضع على جانبه كأنهُ نائم. وفضلاً عن ذلك صار رأسه يوضع على وسادة. وكانت الجثة نفسها تُحَنط بكل عناية، فتحول بعد اجراءات طبية

طريقة الدفن فى الدولة القديمة

عدة الى مومياء ، وبذلك لا يخشى عليها من الانحلال والتلف . وكانت أحشاء الميت تنزع منهُ وتدفن فى أوان خاصة ، يطلق عليها المؤرخون الآن أوانى « كانوب » ويحرسها أربعة آلهة هم أولاد حوريس . وكان من واجب هذه الالهة أيضاً حفظ الجسم نفسه ووقايته من الجوع والعطش . لذلك كان غطاء كل من هذه الأوانى الأربعة يمثل غالباً واحداً من هذه الآلهة وهى : رأس انسان ورأس قرد ورأس ابن آوى ورأس صقر

احشاء الميت وأوانى كانوب

أما الجثة نفسها فكانت توضع فى ماء ملح وتعالج بالقار ثم تلف فى أربطة من النسيج ، ويحشى الجوف الخالى من الأحشاء بلفائف من الكتان والقش . على ان طرق التحنيط كانت تختلف باختلاف العصور . روى هيردوت أنها كانت فى أيامه لا تقل عن ثلاث طرق تمتاز الواحدة عن الأخرى على حسب الثمن الذى يدفع فيها . وهاك وصف أغلى هذه الطرق : توضع الجثة بين أيدى محنطين مهرة اختصوا بهذه الحرفة ، فينتزعون أولاً النخاع المخى بواسطة خطاف من الحديد يرسل الى المخ من المنخر ، وما تعذر انتزاعه من هذه المادة بهذه الكيفية يُستخرج بواسطة عقاقير كاوية . ثم تعمل فتحة فى الجنب بآلة حادة من الظران ، وتنتزع منها الأحشاء فتنظف ويصب عليها نبيذ البلح وتضمخ بكل أنواع البهار . أما البطن نفسها فكانت تفعم بالمر وغيره من المواد ذات الرائحة الزكية ثم تخاط ثانية . ويترك الجسم بعدئذٍ مدة سبعين يوماً فى محلول قوى من النترون . وبعد انقضاء هذه المدة تغسل الجثة مرة أخرى وتلف فى أربطة من الكتان وتدهن بالصمغ . وبهذه الكيفية تصبح محنطة تحنيطاً من الدرجة الأولى . ويخيل الى أيها القارئ أنك قد سمعت ما فيه الكفاية من طرق التحنيط . ولذلك استمحيك عذراً

التحنيط

فى عدم وصف طريقتى التحنيط الاخريين كما رواهما هيرودوت

وكانت المومياء توضع عادة فى صندوق من الخشب أو الحجر الأملس السطح ، محلى ظاهره غالباً بعدة أبواب وهمية يخرج منها الميت ويدخل ثانية كما يشاهد ذلك فى قبور الملوك فى الأزمنة السحيقة جداً . كذلك كان يرسم فى طرف التابوت الذى فيه رأس المتوفى عينان أمام وجهه حتى يستطيع أن يرى من تابوته ويشاهد الشمس المشرقة . وبمرور الزمن أصبحت جدران التابوت الداخلية تنقش بمتون خاصة بالحياة بعد الموت — (فصول من متون الأهرام وكتاب الموتى) . هذا فضلاً عن تصوير كل ما يمكن أن يحتاج اليه الميت فى آخرته . من ذلك تصوير أصناف الطعام والشراب بكمية وافرة ، كذلك الحلى والأسلحة والملابس وآلات الزينة والأحذية وغيرها . ثم أصبحت التوابيت فى العصور المتأخرة تصنع غالباً على هيئة مومياء بوجه مكشوف وتحلى بأربطة كاذبة ينقش فيما بينها كتابات وأشكال آلهة الغرض منها الحصول على سعادة المتوفى وراحته

التابوت ونقوشه

ومنذ الدولة القديمة ازدادت القرابين المأتمية ازدياداً مضطرداً . وأحسن مثال يدل على مقدار كثرة هذه القرابين الكنز الذى كشف فى بداية القرن العشرين فى قبر أحد الكهنة فى مدافن منف ، ويرجع تاريخه الى عام ٢١٠٠ ق م ، ومحتوياته محفوظة الآن فى متحف جامعة ليبزك ، وهي : نموذج مخزن غلال من الخشب يحاكى المخزن الحقيقى فى كل صغيرة وكبيرة ، وضع مع المتوفى فى قبره ليأخذ منه ما يستعين به على الحياة فى الآخرة . وهو عبارة عن حوش مسور يصل اليه الانسان من بوابة ويشتمل على حجر الغلال ، وفى وسط هذا الحوش كانت تكال الغلال ، ثم يحملها الخدم فى حقائب ، ثم يفرغونها فى حجرات

محتويات قبر كاهن

المخزن بواسطة فتحات خاصة . وفى خلال ذلك يسجل الكاتب وهو قاعد القرفصاء على كثب عدد الحقائب . وبهذه الطريقة كان المتوفى يجهز نفسه بالمواد الغُفْل التى تقوم بحاجته فى الحياة الآخرة . وكذلك كان معه نموذج مطبخ لطهى طعامه ، تذبح فيه الحيوانات وتطهى ويخبز فيه العيش وتصنع الجعة . وكان تحت تصرفه أيضاً أربع سفن صغيرة ، منها اثنتان تحركان بالمجاذيف واثنتان بالقلاع ، ويديرها جميعاً نواتى مُصفرة ، وكان الغرض منها أن يسيح فيها المتوفى فى المياه السماوية الى حقول أهل النعيم . وكان لا بد من استعمال النماذج أحياناً بدل الأشياء الحقيقية وبخاصة الأدوات الغالية الثمن . فمن هذه النماذج آلات نحاسية صغيرة وقوس سهام خشبية وكذا وسادة ونعلان من الخشب . هذا الى تمثالى رجل وامرأة من الخشب الملون تأخذ دقة صنعتهما بمجامع القلب ، وهما يحملان أصناف الطعام الى المتوفى — منها أوزة — ويقومان بخدمته . وكذلك وجد فى هذا القبر أسلحة وعصى وأطباق خزفية وأباريق مفعمة بألوان المأكل وأنواع المشرب

دواعى السرور والأنس فى القبر

غير أن حيطة المصرى لم تنته عند ما وصفته لكم من الأشياء التى كانت تحفظ مع المتوفى . فقد كان يوضع فى قبره غالباً نماذج لعجول البحر حتى يتسنى له صيدها فى آخرته كما كان مغرماً بذلك فى حياته . وكذلك كان يحمل معه آلات الطرب ولعب النرد ليتمتع بها ، ومراوح منقوشة بنقوش بديعة ليروح بها عن نفسه فى قبره ، ثم تماثيل نسوة ليؤنسنه كذلك . ومن الغريب أن هذه التماثيل صنعت من غير أقدام حتى لا تفر من القبر . وكان يوضع أحياناً مع المتوفى رأس آخر بحا كى رأسه مخافة أن ينزع منه الشياطين رأسه الحقيقى فى الآخرة

الغرض من التماثيل الصغيرة فى القبر

وقد أخذت التماويذ والتماثيل المسحورة تلعب دوراً هاماً فى تحقيق سعادة المتوفى فى الآخرة . وذلك أنه لما كانت أعمال الزراعة في حقول البردى غالباً شاقة على المتوفى ، ظن القوم أنه يمكن مساعدته بوضع تماثيل صغيرة معه فى القبر لمعاونته فى الحقل ، ولذلك كانت تحمل معها آلات الفلاحة اللازمة ، وقد كتب عليها اما اسم المتوفى واما تعويذة سحرية بواسطتها يدب فيها الحياة فى الوقت المناسب فتقوم باعباء العمل المنوط بالمتوفي

يذكر القارئ أن قلب المتوفي على ما جاء فى عقيدة متأخرة كان لا بد أن يوزن أمام الاله أزريس . ولما كان القلب الحقيقى ينزع من الجثة لما تقتضيه عملية التحنيط ، استعيض منه قلب صناعى من الحجر على هيئة

قلب الميت والجعل

جُعَل يوضع تحت أربطة المومياء . وكان يجيب عن المتوفي في الحياة السفلى بواسطة تعويذة سحرية وهي : « أيها القلب الذى أملكه من أمى . أيها القلب الذى يتعلق بوجودى لا تقف شاهداً على (فى قاعة الحكم أمام أزريس) لا تكن خصمى أمام القضاة ، لا تناقضنى أمام القائم بأمر الميزان . أنت روحى التى فى جسدى فلا تدنس اسمنا . . . . . ولا تكذب على أمام الاله »

وكان لديهم تميمة أخرى مصنوعة على هيئة عصا مقدسة وتعبد كالوثن

التمائم والسر فيها

فى مدينة بوصير (فى الدلتا) . والسر فيها أنها كانت تمنع المتوفي من أن يطرد من دخول بوابة الغرب . وقد نقش عليها : فليقدم له الخبز والجعة والكعك واللحم الوفير على مائدة أزريس ، لأنه أصبح منتصراً على اعدائه فى الحياة الأخرى انتصاراً مبيناً

وأخيراً يجب أن نذكر تميمة على هيئة عقدة مصنوعة من اليشم الأحمر ، وكانت كثيرة الاستعمال وتعتبر رمز الالهة أزيس . وقد اعتقدوا أن من طوق

بها جيده رمقته أزيس بعين رعايتها ، وكذلك انشرح صدر حوريس عند رؤيتها . وفى رواية أخرى أنه كان لها سر آخر يماثل سر العصا المقدسة التى تكلمنا عنها آنفاً ، أى بواسطتها يستطيع المتوفي أن يقفو أثر أزريس في عالم الأموات، فتفتح له أبواب الآخرة، ويقدم له الشعير والشوفان فى حقول البردى (فى السماء) ، ويصير كالالهة الذين ينعمون هنالك

ولنكتف بالقدر الذى ذكرناه من التعاويذ التى كانت تغطى بها المومياء فى الأعصر الخالية، كأنها مكسوّة بدرع تدرأ به عن نفسها، وكان عددها يبلغ أحياناً المائة

وغنى عن الذكر أن قوماً كالمصريين بذلوا مجهوداً عظيماً فى بناء مقابرهم واعدادها ، كانوا يحتفلون حتماً فى يوم الدفن وهو اليوم الذى كان يدخل فيه الراحل « مخدعه الأبدى » بطقوس ورسوم خاصة ، وان لم يكن لدينا مصورات من كل عصور التاريخ المصرى نستطيع أن نرى بواسطتها تلك الاحتفالات المأتمية رأى العين

وصف الاحتفال بدفن الميت

ففى المدن التى لم تكن فيها الجبانة على الشاطىء الذى فيه المدينة كطيبة مثلاً ، كانت تنقل المومياء الى الشاطىء الغربى فى زورق محلى بأحسن الزينة ، يتقدمه كاهن يرتل الصلوات المفروضة وينشر عبير البخور . ويصحب المومياء أخدان المتوفي وأقرباؤه رجالاً ونساء يبكون وينتحبون بأصوات عالية . وعندما ترسو الزوارق التى تحمل المومياء والمشيعين على الشاطىء الغربى يوضع التابوت على زحافة يجرها ثيران الى مدينة الأموات . وحينما يصل محفل المشيعين المحتشد الى باب القبر تؤخذ المومياء مرة ثانية من التابوت ، وتنصب واقفة أمام الضريح يسندها كاهن ذو وجه مستعار يمثل

وجه انوبيس اله الجبانة . وفى الحين الذى يودع فيه الأهل والخلان المتوفى الوداع الأخير، كان الكهنة يتلون صلواتهم ويعدون الراحل لسفره الأخير . وفى هذه الآونة كان يعمل طقس خاص يسمى فتح الفم . وذلك ان يفتح فم المتوفى بواسطة خطاف وتلاوة تعاويذ سحرية ، فتعود اليه خاصية استعمال فمه سواء اكان ذلك فى الكلام أم الأكل أم الشرب . وبعد الفراغ من ذلك يحمل التابوت مشتملاً على المومياء الى فوهة القبر ويدلى باحبال الى أعماق الرمس حيث يتلقاه الدافنون

فتح الفم

ولعمرى اذا كان هذا مقدار المجهود الذى يبذل فى دفن آدمي ، فما أعظم ذلك المجهود اذا كان المتوفى «الهاً حياً» أى اذا اخترمت المنون حيواناً مقدساً . والظاهر أن قدماء المصريين من أقدم عصورهم خصصوا جبانات لدفن الحيوانات المقدسة التى كانت تحفظ فى المعابد ، مثل العجل أبيس والعجل منفيس وكبش منديس . فنعلم أن العجل أبيس مثلاً كان يحنط كالإنسان بالضبط وتشيع جنازته باحتفال عظيم

دفن الحيوان المقدس

وكانت عجول أبيس تدفن فى مدافن خاصة فى العصور الأولى ، فلما جاء رمسيس الثانى بنى لها مدفناً عاماً صار فيما بعد كعبة للزائرين . وهذه المقابر تعرف بالسرابيوم ، وهى واقعة فى الصحراء على كثب من سقارة . ولا تزال تلك المدافن التى تحت الأرض بما تشتمل عليه من التوابيت الحجرية الضخمة الهائلة موضع الأعجاب الى يومنا هذا

السربيوم

ولما أخذت عبادة الحيوان تزداد رسوخاً فى البلاد ، وذلك قبل الميلاد ببضعة قرون ، وصار تقديس الحيوان لا يقتصر على أفراد معينة بل يشمل النوع كله ، اذ كان يُعتبر المظهر الذى يتجلى فيه الاله الحقيقى ، أصبح دفن

جبانات الحيوان المقدس

حيواناته جميعها من الأعمال التي يستحق عليها فاعلها الثواب . وقد أقيمت مدافن عظيمة لهذا الغرض يشتمل الواحد منها أحياناً على مئات الموميات. فكان في بوبسطة مثلاً جبانة عظيمة للقطط التي عبدت هناك، وفي منف مدافن عدة لمالك الحزين المقدس، وفي أمبص (كوم أمبو) مدفن عظيم للتماسيح الكبيرة التي يختلف طولها من ٦ الى ١٠ أقدام وبجانبها غيرها صغيرة جداً. على أنه في أحوال خاصة كان يدفن الحيوان المقدس في قبر خاص به، ويوضع في تابوت وتنصب لوحة منقوشة على قبره. ومن الآثار الغريبة في بابها من هذا النوع اللوحة الموجودة الآن بمتحف برلين، وغرابتها تنحصر في أن ناصبها أغريقي استوطن مصر. وقد أقيمت هذه اللوحة على جدث حية قتلها مجهول ونقش عليها بالأغريقية الركيكة العبارة الآتية:

أيها الغريب قف عند مفترق الطرق أمام الحجر العظيم وستجده مفعماً بالكتابة

محتويات لوحه قبر لحية

انعنى بصوت مرتفع، أنا تلك الحية المقدسة الطويلة العمر التي قضت عليها يد شريرة جعلتها من أهل الآخرة

ما الذي جنيت يا أشقي الناس باغتيال حياتي ؟

سيكون نسلي مهلكاً لك ولذريتك ، فانك بقتلي لم تقتل مخلوقة تعيش على الأرض فريدة

فان نسلي الذي ينتشر على وجه البسيطة كعدد حب الرمال على شاطئ اليم لا شك سيقذف بك الى جهنم، ولكن ذلك يؤجل حتى ترى أولاً بعيني رأسك حتف ذريتك

لقد أشرفنا على ختام هذا البحث ، بعد أن وصفنا لكم على سبيل الايجاز نهضة الديانة المصرية وتدهورها ومعتقدات المصريين فى شئون العالم الآخر وعبادتهم للآلهة والموتى

ويجمل بنا الآن قبل انتهاء كلامنا أن نعرض سؤالاً لا شك أنه عرض لكثير منكم لأنه يمسنا ، وهو هل كان للديانة المصرية أى أثر خارج وادى النيل، وهل كان لها تأثير محسوس فى ديانات الأمم الأخرى لا سيما اليهودية والنصرانية وصفوة القول هل كان لديانة قدماء المصريين شأن خطير فى تاريخ العالم ؟

الديانة المصرية خارج مصر

تخطت الديانة المصرية فى الألف الثانى قبل الميلاد حدود مصر، وذلك أنه لما أغار المصريون بجيوشهم على السودان، وتوغلوا بها فى آسيا حتى أوردوها شواطئ الفرات، وأسسوا هناك دعائم ادارتهم ، واقاموا مخافر حامياتهم ، حملوا معهم دياناتهم الى تلك الأصقاع التى فتحوها . فى تلك البلاد النائية أقيمت معابد للآلهة المصرية وقدمت لها القرابين . بيد أنه لم يحدث قط أن اكره المصريون سكان البلاد المغلوبة ، سواء أكانوا من الزنوج أم الاسيويين، على نبذ معبوداتهم الوطنية واعتناق ديانة الفاتحين ، اللهم الا أثناء الفترة القصيرة التى حكم فيها الملك الزائغ امنحوتب الرابع . بل أنهم على العكس أقروا المغلوبين على دياناتهم القومية ولم يتعرضوا لها .

أهم الهة مصر فى الخارج

وقد كان المقام الأول بين الآلهة التى عبدت فى الأقطار الأجنبية محفوظاً بطبيعة الحال لرب الآلهة امون رع معبود طيبه واله الدولة الحديثة . بيد أن الإلهين رع خوريس وفتاح الحارسين للمدينتين الكبيرتين الأخريين (هليوبوليس ومنفيس) لم يفقدا حظهما الخاص من الإجلال والاحترام . وكان هؤلاء الآلهة الثلاثة مظهراً أو رمزاً للدولة المصرية ؛ فكل ما يقدم لهم

من آيات الخشوع انما هو اقرار بسلطان مصر على الشعوب المقهورة واعتراف بسيطرتها على البلاد المفتتحة . لهذا كان بدعة مستحدثة ما حصل من تقديم فروض العبادة لذات الملك (الممثل الحي للسلطة المصرية) علاوة على آلهة الدولة . حقاً أن المصريين اعتبروا فرعون منذ قديم الزمان مثالاً مجسداً للاله «حوريس» أو «ابن إله الشمس» ، كما سموه باختصار «الإله الصالح»، ولكن لم يحصل قط أن فرعوناً كان أثناء حياته موضع إجلال وعبادة في مصر نفسها ، ولم يوضع تمثال أي ملك من الملوك بجانب تمثال إله المدينة في أي معبد من المعابد . وانما اجترأ القوم على هذه البدعة أولاً في البلاد الأجنبية أو بالحرى بلاد النوبة، اذ لم نعثر في آسيا على أثر يدل على تأليه الفراعنة وهم أحياء. ففي بلاد النوبة كانت تنشأ المعابد لملوك مصر وتقدم لهم القرابين في «قدس الأقداس».

عبادة الملك خارج مصر

وفي أحد هياكل النوبة يرى فرعون متبوئاً عرش الألوهية بجانب امون وفتاح أو رع حوريس ، تقدم لهم آيات الخشوع وشعائر التقديس . وقد كان سكان النوبة الزنوج الذين كانوا في عهد الفتح المصري لا يزالون يتخبطون في ظلمات الهمجية ، أشد الناس خارج مصر قبولاً واحتراماً للمدنية المصرية على العموم؛ فلم يلبثوا أن تحضروا وتمصروا تدريجاً، وأحلوا الآلهة المصرية محل آلهتهم القومية أو عبدوها بجانبها مصورة في هيئة مصرية . كل ذلك بلا ضغط أو اكراه خارجي من السلطات المصرية . وكان سلطان الكهنة على الأهلين في النوبة أوسع وأقوى منه في مصر نفسها؛ حتى أنه لما تكونت دولة منفصلة في أعالي النيل مستقلة عن مصر وذلك حوالي سنة ١٠٠٠ ق . م صار ملوك هذه الدولة خاضعين كل الخضوع لسيطرة الكهنة ؛ فلم يكونوا يستطيعون القيام بأي عمل أو المضي في أي مشروع الا بعد الحصول على رضا الآلهة أي الكهنة انفسهم.

النوبة اكثر البلاد قبولاً للمدنية المصرية

عظم نفوذ الكهنة في النوبة

يشهد بذلك ما قاله هيرودوت « كان الملوك يسيرون الى ميدان القتال متى أمرهم زوس امون على لسان وحيه ويذهبون حيثما يوجههم » . وكان النوبيون القدماء أحرص من المصريين أنفسهم على تعاليم الطقوس الدينية لا سيما قوانين الأطعمة . ومما يروى فى هذا الصدد أن بعانخى ملك النوبة لما ذهب فى حملة الى أسفل وادى النيل حوالى القرن الثامن قبل الميلاد لم يسمح لأمراء تلك البلاد بالدخول عليه « لأنهم كانوا نجسين يأكلون السمك وهو رجس ممقوت فى القصر »

لا غرابة اذن أن نرى النوبة فى عصر انحطاط الديانة وتقلص نفوذ الكهنة فى مصر أشد مصرية من المصريين أنفسهم ، كما لا بدع فى أن الكهنة المصريين حينئذ كانوا يعتبرون بلاد الحبشة المرجع الصادق للديانة المصرية الصحيحة . ومن هنا يتضح لنا كيف وقع كتاب الاغريق فى ذلك الخطأ الشائع وهو اعتبار الحبشة مهد المدنية المصرية القديمة كلها . على أن الزمان لم يلبث أن دار دورته ، فاضمحلت الحضارة المصرية فى بلاد النوبة ، كما تضاءل شأن الديانة فيها . . ولعله لم يبق ثمة شىء مصرى يذكر حينما أقيم الصليب فى القرن الرابع الميلادى جنوبى جنادل اسوان

الحبشة ليست مهد الديانة المصرية

وفى عهد الدولة الحديثة أدخل المستعمرون المصريون عبادة إلههم القومى الأكبر « امون رع » الى واحات صحراء ليبيا الواقعة غربى وادى النيل ، وظل هذا الإله معبوداً هناك بعد أن سقطت زعامته على الالهة المصرية بمدة طويلة. وقد أقيمت لامون معابد فى الواحتين الخارجة والبحرية وهما المسميتان عند الرومان بالكبرى والصغرى ، ولكنها لم تبلغ من الشهرة وبعد الصيت ما بلغه معبده المقدس فى واحة سيوه موطنه الخاص . وكان لامون فى هذه الواحة أيضاً

عبادة آمون فى الواحات ووحيه

تمثال وحى مشهور على نسق وحى طيبه . وقدذاع صيته سريعاً فى أقطار ليبيا المجاورة ووصل الى سيرين حتى لقد بلغ بلاد اليونان. وقد عد هذا الوحى فى عهد «سيرس» فى القرن السادس قبل الميلاد من أصدق ألسنة الغيب وأعظمها شأناً فى العالم القديم. بيد أنه لم يبلغ أوج شهرته وقمة مجده إلاّ فى سنة ٣٣١ ق.م.وذلك لما قام الاسكندر الأكبر برحلته المشهورة خلال الصحراء ميمماً هذا الوحى، فحياه كهنة امون الذى كان يمثل برأس كبش وجسم انسان بلقب « ابن الإله »

انتشار الحضارة والديانة المصرية فى سوريا

وقد أثرت الحضارة المصرية وعظم نفوذها أيضاً فى سورية وفلسطين حيث انفردت السلطة المصرية بالسيادة المطلقة قروناً عدة أثناء الألف الثانى قبل الميلاد. بل ان العناصر المصرية زاحمت الفنون فى سوريه وامتزجت امتزاجاً غريباً بالعناصر البابلية الأقدم عهداً والتى كان لها حتى ذلك العهد المكانة الأولى. كذلك كان شأن المعتقدات الدينية المصرية فانها وجدت صدراً رحباً فى المدن السورية التى احتلتها جيوش فرعون، وشيد فى أمكنة عدة معابد للآلهة المصرية. نذكر من ذلك على سبيل المثال المعبد الذى أقامه رمسيس الثالث فى كنعان لإله الدولة امون. بيد أن الآلهة السورية «بعل» و«اشتاروت» لم تفقد مكانتها قط بهذه الاغارة الاجنبية، بل على العكس كان لها من المصريين المستعمرين احترام واجلال. وهكذا لم ترسخ قدم الديانة المصرية فى سوريا على ما يظهر، ويحتمل أنه عند انسحاب آخر حامية منها انقطعت فجأة تلك القرابين التى كانت تقدم للآلهه المصرية .

تأثير الديانة فى الغرباء

هكذا كان مبلغ تأثير الديانة المصرية فى البلاد المتمدينة الاجنبية . ولكنه يرجح أن تأثيرها فى الغرباء الذين استوطنوا وادى النيل كان بطريقة مختلفة جداً؛ فان هؤلاء الأجانب أينما ساروا أو حلوا فى المدن أو الأرياف كانوا

حتماً يختلطون بالكهنة المصريين ويحتكون بآلهتهم ويقفون على أساليب عباداتهم التى تسير على قواعد ثابتة من أقدم عصور التاريخ .

وعلى ذكر الغرباء سينصرف ذهنكم فى الحال كما انصرف ذهنى الى بنى اسرائيل الذين استوطنوا أرض غوش (وادى الطميلات) مدة طويلة على ما جاء فى التوراة ، والذين نشأ نبيهم العظيم موسى فى كنف فرعون وتربى فى حماه وتلقى الحكمة من افواه كهنته . على أنى اذا تكلمت عن اقامة بنى اسرائيل فى مصر وبحثت فى تأثير ديانة المصريين وحضارتهم فى العبرانيين سأكون مضطراً لقصر كلامى على الحقائق الضرورية فقط . وليس قصدى أن أثير مجادلة أخرى عن منفيس وموسى كالمجادلة عن بابل والأنجيل وهى التى أقلقت بال كثير من الناس فى المانيا وفى بلادكم أيضاً

بنى اسرائيل

يجدر بى أن ألاحظ أولاً أنه لم يرد فى موضع ما من الآداب المصرية أى اشارة لاقامة يوسف فى مصر ، حتى اسم موسى نفسه لم يذكر فى شىء من الكتابات المصرية ، وهذا ما حمل كثيرين من محدثى المؤرخين على الشك فيما ورد فى الانجيل من الحوادث التاريخية المسهبة وعدها من الخرافات . . بيد انى لا أرى هذا الرأى المبالغ فى الالحاد . حقاً ان ما ورد من القصص فى أسفار موسى مزخرف بكثير من التلفيقات الدخيلة والخرافات التى لا تختص بها هذه الأسفار — وهنا أشير فقط الى قصة يوسف وامرأة العزيز والى رؤيا يوسف — ولكن أجزاء التوراة الأخرى الخاصة ببنى اسرائيل فى مصر تكشف لنا معلومات دقيقة عن حالات مصر القديمة، هذا الى أنها تملأ فراغاً متسعاً من تقاليد بنى اسرائيل الموروثة . لذلك لا نجد سبيلاً لنفيها بلا مناقشة أو اعتبارها غير تاريخية . على أنه من الصعب جداً تمييز الحقائق التاريخية من

عدم ذكر يوسف وموسى فى الآداب المصرية

حوادث الانجيل التاريخية

الأساطير الواردة فى سفر التكوين وخروج بنى اسرائيل من مصر، فان هذا ليس بأسهل من وضع جداول للحوادث التاريخيـة الواردة فى قصة نبلنجنليد (Nibelungenlied) بدون سابق معرفة لهجرة الأمم. وأرى أنه لا ينبغى أن نعتبر من الحقائق التاريخية غير أمرين هما اقامة بنى اسرائيل فى مصر ثم شخصية موسى. أما تعيين تواريخ اقامة بنى اسرائيل وخروجهم من مصر فما لا سبيل اليه، وحسبنا أن نعتبر وقوع هذه الحوادث فى النصف الأخير من الألف الثانى قبل الميلاد.

أثر الديانة المصرية فى ديانة بنى اسرائيل

لا نزاع فى أن العبرانيين عند خروجهم من مصر حملوا معهم كثيراً من العادات والتقاليد المقتبسة من حضارة تلك البلاد. أليس «من بين الآلهة التى أخرجت بنى اسرائيل من مصر» ذلك العجل المقدس أو العجل الذهبى الذى عمت عبادته شواطئ النيل؟ اضف الى ذلك أن اسم موسى المؤسس للديانة اليهودية يدلنا فى الحال على ما كان بينه و بين الحضارة المصرية من وثيق الصلة؛ فان ذلك الاسم مصرى والجزء الأول منه «مس» معناه ابن، ونجده فى كثير من أسماء الأشخاص فى عصر الدولة الحديثة مركباً مع أسماء الآلهة، وذلك مثل «امين مس» ومعناه ابن امون، و«تحوت مس» ومعناه ابن الإله تحوت، أو «اصع مس» وهو الذى حُرّف فى اليونانية الى «اموسيس» و«اماسيس» ومعناه ابن القمر

لهذه الاعتبارات كان من المرجح جداً أن تكون الديانة التى جاء بها موسى قد تأثرت بمعتقدات المصريين، كما أن شريعـة بنى اسرائيل وشعائر عبادتهم احتوت كثيراً من العناصر المصرية. فمثلاً السفينة المقدسة الجديدة التى ذكرها موسى فانها ليست الا نموذجاً من السفن المصرية التى نجدها

فى المقصورة التى كان يحفظ فيها تمثال الإله على ما وصفنا آنفاً . ولدينا بدل السفن المقدسة التى كانت تستعمل فى النيل عند قدماء المصريين تلك السفينة التى استعملها بنو اسرائيل للعبادة فى الصحراء . ويصعب علينا بلا شك أن نذكر بالتفصيل مقدار ما بقى فى ديانة بنى اسرائيل من الآراء المصرية القديمة بعد أن محصها الأنبياء . وينبغى أن أحذركم على الخصوص من فكرة عم اعتقادها يوماً ما وهى أن التوحيد عند بنى اسرائيل كان ارثاً دينياً من كهنة عين شمس ، وأن التوحيد الساذج الذى نادى به امنحوتب الرابع كان له تأثير فى ديانة بنى اسرائيل ؛ فان هذا تخمين ضعيف ليس فى تاريخ الديانات ما يساعد عليه . ومن المرجح من جهة أخرى أن الفصول الشعرية من التوراة قد اقتبست كثيراً من التعبيرات المصرية ، وان أجزاء كاملة من الآداب العبرية سيما الحكم والأمثال الشعرية قد أفرغت فى قالب مصرى . ولا يعزبن عن بالنا أن ثمة كثيراً من أوجه التشابه والتطابق بين الأناشيد البابلية والعبرية . لهذا كان من الصعب جداً أن نقرر بالدقة مبلغ تأثير بابل ومنفيس فى الآداب العبرية . على أنا لا نشك فى أن أحسن الأشعار الواردة فى التوراة من أصل عبرى بحت . والظاهر فضلاً عما تقدم أن الديانة المصرية كانت ذات أثر بليغ فى التعاليم الاسرائيلية المتأخرة ، وذلك فى عهد الحكم اليونانى حين استوطنت طوائف جمة من اليهود الاسكندرية وغيرها من المدن المصرية

أهم المعتقدات التى أخذتها اليهودية والمسيحية عن الديانة المصرية

ولعل أهم المعتقدات التى أخذتها اليهودية المتأخرة وبالتالى بعض طوائف المسيحية عن مصر فى ذلك الحين ما تعلق منها بالعالم الأخروى . فإنا اذا وجدنا فى المسيحية الأولى فى الفصل الأخير من الانجيل ذكراً لبوابة من الشبه للعالم السفلى خطر ببالنا حتماً تلك البوابة النارية للعالم السفلى عند قدماء المصريين .

هذا الى أن اعتقاد اليهودية المتأخرة والمسيحية فى البعث نشأ على ما يظهر من آراء خفية غريبة تذكرنا كثيراً بأراء المصريين فى أزريس وعودته الى الحياة . وهناك أيضاً نرى الملك وكل فرد من بعده قد ماثل الإله وحل به ما حل من تصرفات الحدثان . غير أنه من المؤكد أن الآراء المصرية ليست وحدها المصدر المسئول عن نشأة معتقدات اليهودية والنصرانية فى العالم الأخروى . ومن المستحيل اليوم أن نفصل العناصر المصرية البحتة فيها

ويمكننا بأوضح من هذا أن نتتبع تقدم وتأثير الآلهة المصرية فى العالم اليونانى الرومانى ؛ ففى القرن الثالث قبل الميلاد أدخلت صنوف العبادات المصرية فى اليونان ، سيما الإله الجديد سرابيس وطائفة الآلهة المتصلة بأزريس وهى أزيس وابنها حوربوخراد « حوريس الطفل » وكذا أنوبيس . وقد وجدت هذه الآلهة طريقها من اليونان الى ايطاليا ورومية حيث لقيت مكاناً رحباً ومقاماً سهلاً . وقد اجتذبت هذه المناسك الخفية الأجنبية عقول عامة القوم، وزادهم تعلقاً بها وحرصاً عليها انكار الحكومة لها مما حملهم على مزوالتها فى الخفاء . واستمر الحال كذلك حتى أجيز فى النهاية بعد محن عدة إقامة شعائر الديانات الأجنبية بين جدران رومية وذلك فى عهد « كراكالا » فى مستهل القرن الثالث قبل الميلاد . وقد بنى الامبراطور نفسه معبداً فخماً لسرابيس على « الكِرنَال » ، وأخذ الآلهة المصريون يمثلون هناك دوراً هاماً فى الحياة الدينية، ولا أدل على ذلك مما أبداه المسيحيون فيما بعد من شدة المقت وفرط الحقد في محاربتهم لهذه المعبودات الوثنية

تأثير الديانة المصرية فى الديانة اليونانية

سرابيس فى رومية

وقد تغلبت المسيحية فى النهاية على الديانة المصرية كما تغلبت على اليونانية. ولكن الديانة المنتصرة احتفظت بآثار داخلية وخارجية من كل من

سابقتيها . فلا بدع اذن أن تكون الديانة المصرية المكانة الخطيرة التى لها فى تاريخ ديانات العالم

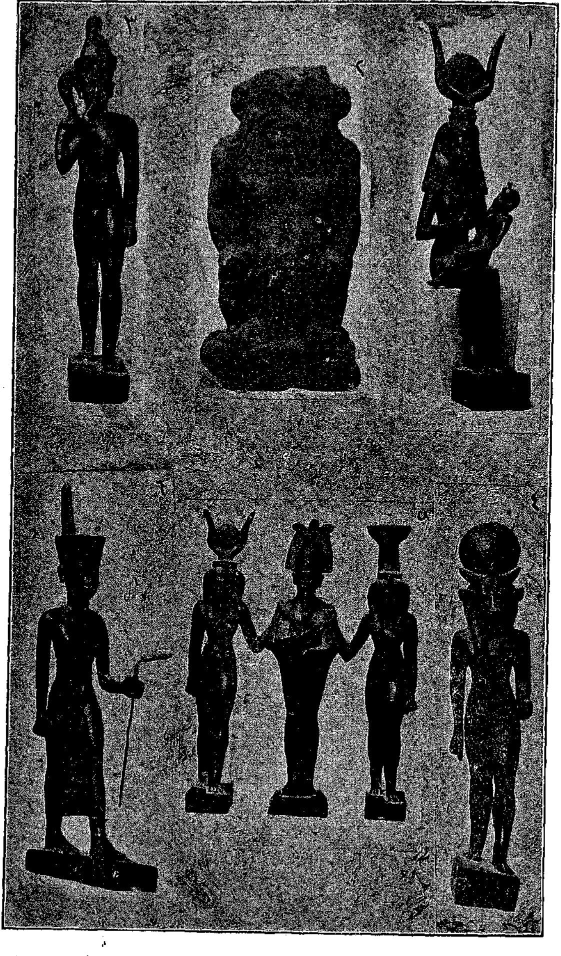
يقول « ثيو دور مومسن » : إن وضع تمثال مصرى بجانب التحف اليونانية يكون له من التأثير فى النفس ما لحذاء العروس الذى لبسته فى طفولتها اذا عرض يوم زفافها . واذا كان هذا التشابه حقيقة فى التمثال كان كذلك فى الديانة المصرية اذا قرناها بالفلسفة اليونانية أو الديانة المسيحية . على أن ما وصلنا اليه من البحث فى المتون المصرية يدلنا على أن ديانة القوم لم يكن فيها أسرار عميقة ، وأنه لم ينطق فيها بكلمة الحكمة الأخيرة كما تخيل علماء اليونان وقتاً ما . ولن تكون تماثيل الآلهة المصرية ذات الرءوس الحيوانية والرموز الغريبة مألوفة لنا كما ألفنا الهة ألمبس ، رفقاء شبابنا . ولكننا مع ذلك نجد بين ثنايا الديانة المصرية وطقوسها تياراً فياضاً من الديانة الصادقة له من القوة ما به يتغلب على ذوى العقول الراجحة . وأرجو أن أكون قد وفقت الى تفهيمكم ما فيه الكفاية مما سمعتموه منى . وأختتم بكلمات « جيتى » الخالدة . « الله هو الشرق ، الله هو الغرب »

كشف لمراجعة صور ما فى الكتاب من الالهة وغيرها

الاســـــــــم	الصفحة	رقم الصورة	أهم المواضع التى ذكر فيها
			صفحة
أزيس ترضع حوريس	١٣٢	١	٣٨
المعبود بس	»	٢	١٦
الاله حربو خراد	»	٣	٥٦
المعبودة حاتحور	»	٤	١٤،١٥،١٧،١٨،٣٥،٣٩
أزريس بين أختيه . (أزيس ، نفتيس)	»	٥	٢٤،٢٥،٣٧،١٠٠
المعبودة نيت	»	٦	٢٨
« سخمت	١٣٣	١	١٤،١٥،١٨،١٩،٢٣،٤٣
المعبود فتاح	»	٢	١٤،٢٣،٢٨،٥٤،٥٧،١٢١
« نفرتم	»	٣	٢٣
العجل أبيس (يكتنفه أزيس ، ونفتيس)	»	٤	٢٠،٥٨،١١٩،١٢٦
أزيس فى شكل حاتحور	»	٥	أنظر الكلام على حاتحور
المعبود بستت (القطه)	»	٦	٤٣،٥٦،٧٠،١٢٠
« خنس	»	٧	٢٣،٤٦
أزيس المجنحة	١٣٤	١	٨٥،٨٦
المعبود سبك (التمساح)	»	٢	١٤،١٧،١٩،٢١و١١٩
حوريس على رأسه التاج	»	٣	أنظر الكلام على حوريس
المعبود أنوبيس (ابن آوى)	»	٤	٥٦
« اتم	»	٥	٣٢،٣٣،٣٧،٣٩،٥٣
المعبودة نيت	١٣٥	١	١٤،٣٩
أمحوتب الحكيم	»	٢	٥٧
الاله شو	»	٣	أنظر الكلام على شو ص ٢٥ الخ
ثالوث العرابة المدفونة (أزريس ، أزيس ، حوريس)	»	٤	٨٠
الاله حوريس	١٣٦	١	١٤،١٦،١٧،٢١،٢٤،٢٧،١٢١

الاســــــــــم	الصفحة	رقم الصورة	أهم المواضع التى ذكر فيها
			صفحة
المعبودة توريت تساعد النساء عند الوضع	١٣٦	٢	١٦
حوريس بهدت	»	٣	٢٣
المعبود « من »	»	٤	١٩،١٧،١٥
حوريس لابسا تاج أبيه	»	٥	أنظر الكلام على حوريس
العجل منفيس	١٣٧	١	١١٩،٢٠
المعبود سوتخ (ست)	»	٢	٢٥،٢٥،٢٤،٢٣،١٤
الهة العدل « معت »	»	٣	٧٣
الاله أمون رع (قابضاً على الأسرى)	»	٤	١٢٤،١٢١،٢١،٨٢،٥٢،٤٢
اخناتون وأسرته يعبدون أتون	١٣٨	١	٤٩،٤٧،٤٦ الى ٥١
كبش منديس (يعبده بطليموس وزوجه)	»	٢	١١٩
رمز أنوبيس	»	٣	أنظر الكلام على أنوبيس
صورة الاله شو يسند نوت وعلى ظهرها زورق الشمس وتحت رجليها الاله جب	»	٤	٨٠،٣٧،٢٩،٢٥
اله النيل	»	٥	٨١،٨٠
قاعة العدل أو يوم الحساب	١٣٩	١	١١٧،١٠١
فتاح سكريس أزريس على صندوق من البردى	»	٢	٩١
المعبود وبوات	»	٣	١٨،١٧
الزوج (باى)	»	٤	٩٤
امنحوتب الثالث وقرينته (الكا)	»	٥	٩٥،٩٤
المعبود تحوت	»	٦	٧٤،٧١،٤٠،٣٨،٣٦،٢٧،١٩،١٧،١٦
الباب الوهمى أو الكاذب	١٤٠	١	١١٢،١٠٩،١٠٨
المعبود أمون	»	٢	٤١،٢٣،١٧،١٥
الاله رع ينشأ من زهرة الزنبق	»	٣	٣٠ أنظر الكلام رع فى معظم الكتاب
تخطيط للمعبد المصرى	»	٤	٦١ الى ٦٧

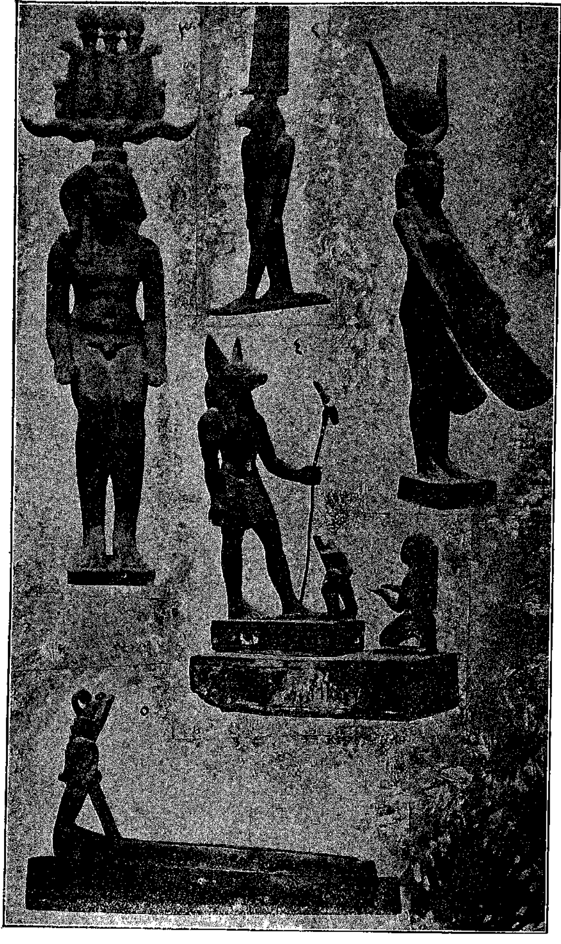
١٩٢٣/٧/١/٢٠٠٠



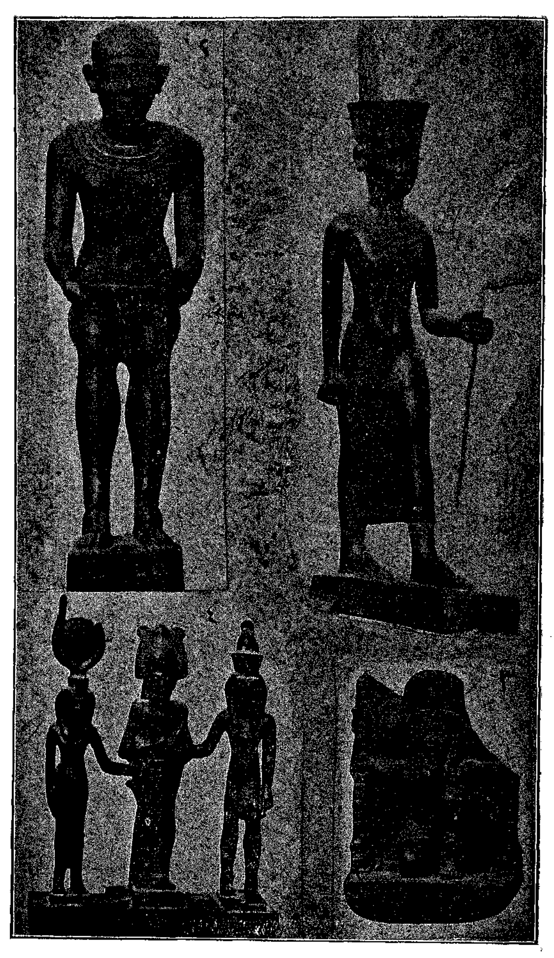
(١) ازريس ترضع حوريس (٢) المعبود « بس » (٣) المعبود حربوخراد
(٤) المعبودة حاتحور (٥) ازريس بين اختيه ازيس ونفتيس (٦) المعبودة نيت



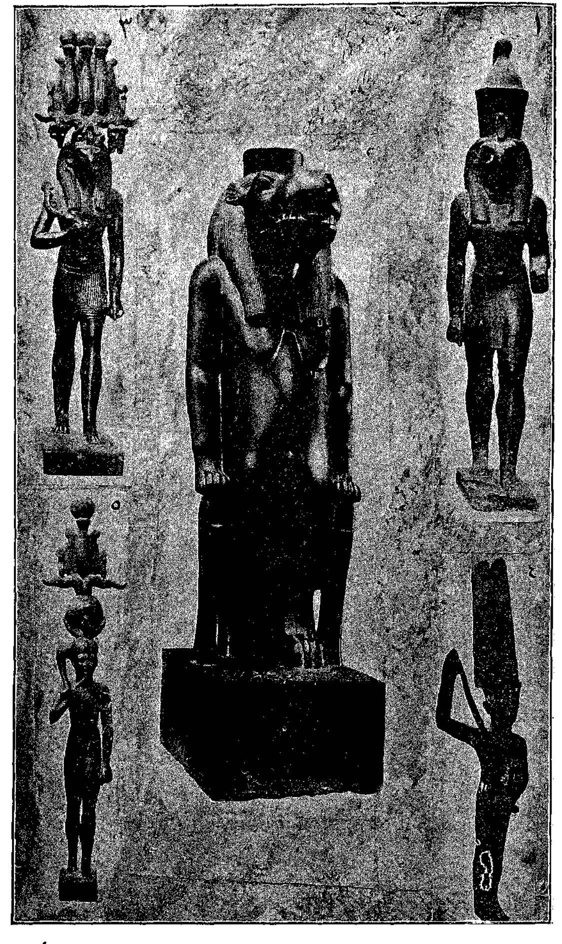
(١) الالهة سخمت (٢) المعبود فتاح (٣) المعبود نفرتم (٤) العجل ابيس يكتنفه ازيس ونفتيس
(٥) المعبودة ازيس في شكل حاتحور (٦) المعبودة بستت أى القطة (٧) المعبود خنس



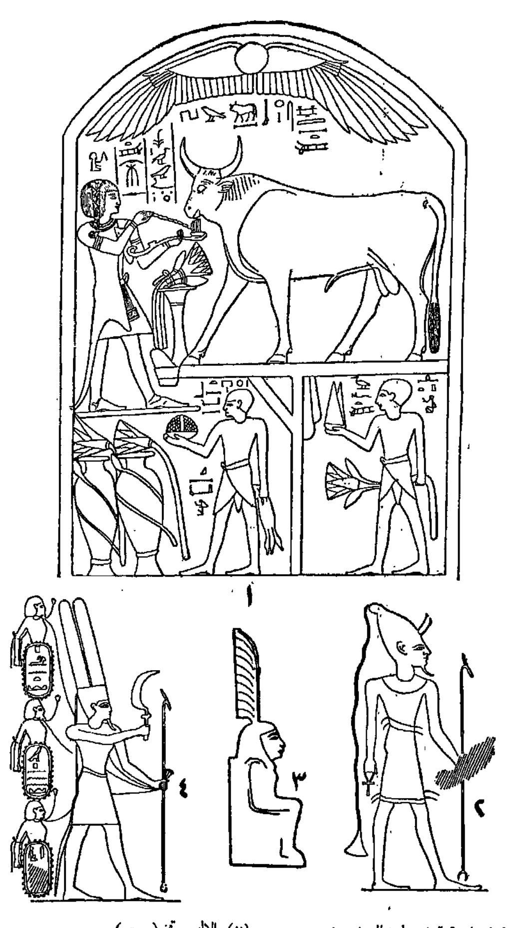
(١) ازيس المجنحة (٢) المعبود سبك أى التمساح (٣) حوريس لابسا التاج
(٤) المعبود انوبيس (ابن آوى) (٥) المعبود اتم



(١) الالهة نيت (٢) امحوتب الحكيم (٣) الاله شو (٤) الثالوث (أزريس وحوريس وازيس)



(١) الاله حوريس (٢) الالهة تواريت (٣) المعبود حوريس (بهدت) أى ادفو
(٤) المعبود « من » (٥) المعبود حوريس لابساً تاج أبيه ازريس

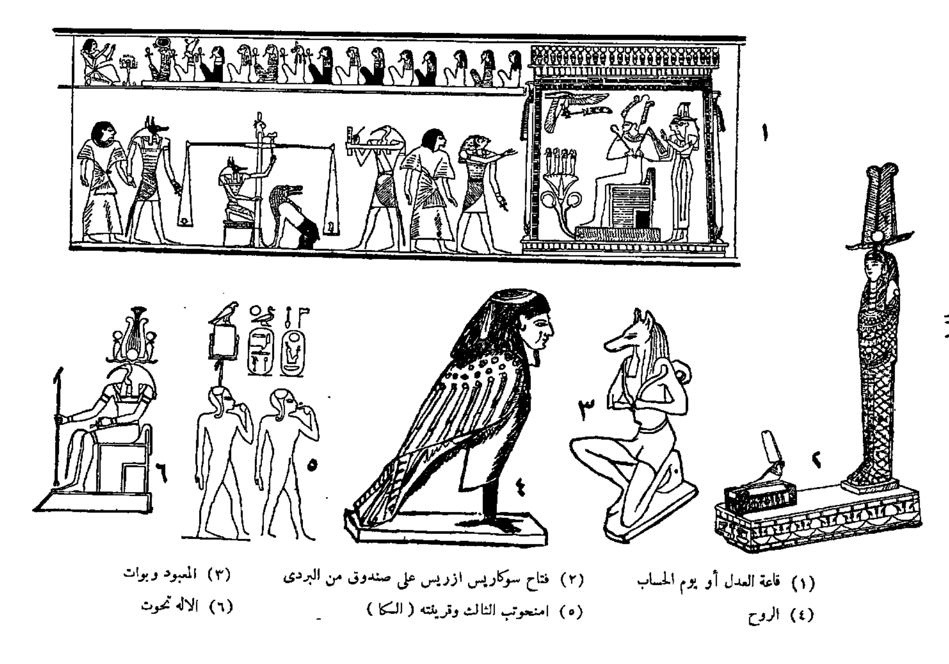


(١) لوحة تمثل عبادة العجل منفيس (٢) الاله سوتخ (ست)

(٣) الهة العدل « مَعَتْ » (٤) الاله الاعظم امون رع قابضاً على الأسرى



(١) اخناتون وزوجه يعبدان قرص الشمس (أتون) (٢) الكبش منديس (٣) رمز انوبيس
(٤) الاله شو يسند نوت وعلى ظهرها زورق الشمس وتحت رجليها الاله جب (٥) اله النيل



(١) قاعة العدل أو يوم الحساب — (٢) فتاح سوكاريس ازريس على صندوق من البردى — (٣) المعبود وبوات

(٤) الروح — (٥) امنحوتب الثالث وقرينته (الكا) — (٦) الاله تحوت